دومينيـك ڤالبيـل

علم المصريات

ترجمة : لويس بقطـر



دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع

١٨


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علم المصريات

الطبعــــة الأولــى
القاهــــرة - ١٩٩٤



القاهرة - باريس

القاهرة : ش هشام لبيب - رقم ٤٠
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

تليفون ٢٧٣٥٠٧٤

رقم الإيداع ٩٤/٣٥٥٣
I.S.B.N: 977 - 5091 - 19 - 5



دومينيك ڤالبيل

علم المصريات

ترجمة : لويس بقطر



ترجمة كتــــاب

QUE SAIS-JE ?

L'égyptologie

DOMINIQUE VALBELLE

ISBN 2 13 043 562 9

Dépôt légal — 1re édition : 1991, février

تقديم

يتضمن هذا الكتاب رغم صغره تعريفا طيبا بعلم المصريات، ويستطيع القارىء أن يتتبع خلال صفحاته المحدودة تاريخ هذا العلم وتخصصاته وصورا من مجالات العمل المختلفة. والكاتبة تحاول فى تركيز شديد أن تستعرض أوجه النشاط المختلفة التى تسهم فيها الهيئات والمؤسسات العلمية المحلية والدولية.

ولايسعنى فى النهاية إلا ان أقدم شكرى الجزيل للأستاذ ريشار چاكمون على تكرمه بمراجعة النص والإسهام فى توضيح كثير من المعانى فى النص الفرنسى. كما أوجه الشكر للدكتور وجيه سمعان الذى تفضل بقراءة أولية للترجمة وإبداء عدد من الملاحظات المفيدة.

لويس بقطر

مقدمة

إن علم المصريات ، رغم ما يتسم به من مكانة خاصة ، ينتمى إلى علوم الإنسان والمجتمع، مثله مثل علوم أخرى كتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث أو المعاصر الفرنسى . ويعتمد هذا العلم على مناهج مماثلة ، ويحتل نفس مكانة تلك العلوم داخل المعاهد والهيئات العامة . ويعمل فى هذا المجال نفس النمط من المتخصصين، وإن كان علم المصريات يحتوى على تخصصات لا يمكن تجاهلها .

لقد مر هذا العلم منذ ميلاده فى القرن التاسع عشر فى طريق مستقل يختلف الناس فى مدى أصالته أو مكانته . وبالإضافة إلى هذا، يتضمن مادة هائلة متنوعة تغطى آلاف السنين ، مادة غنية تدور حول فروع كثيرة على مجرى مرحلة زمنية ممتدة منذ فجر الإنسانية. إن الفروع التى تتسم بالجدة والابتكار تضفى على موضوعاتها نفس الطابع ، فهى تأسر الناس منذ الزمن القديم سواء كانوا جيران مصر أو زوارها أو غزاتها . إنها موضوعات تدفع الإنسان إلى عالم من الأحلام أو الهيبة المصحوبة بالخوف وتثير لونا من القلق أو الدهشة ، وفى أغلب الأحيان يُفتن الإنسان بها، ولكنها تحدث أحيانا لونا من النفور، ورغم هذا لا تترك الإنسان أبدا فى حالة من عدم المبالاة ، بل تدفع إلى التساؤل عما يكمن وراء هذه الألوان من التصرفات.

وهناك أسباب واضحة، فقد حققت الحضارة المصرية أعمالا وتركت شواهد فريدة يعرفها العالم كله. إن ما تمارسه الحضارة المصرية من سلطان علينا لا يخلو من مغالاة أو إسراف، يتجليان مثلاً فى بعض الحملات الإعلانية أو فى بعض الظواهر الإعلامية. إن ما تقدمه هذه الحضارة للجمهور العادى أو للمتخصصين مادة تختلف فى مدى صحتها أو مدى دقتها. وبينما يتعرف عدد متزايد من الهواة على هذه الحضارة سواء بزيارة المتاحف أو من خلال القراءة ويحملون أنفسهم دراسات جادة صعبة، نجد آخرين تستهويهم الخزعبلات الغامضة الصادرة عن أساطير قديمة، وآخرين يجدون فى هذه المادة إلهاما فنيا لهم. أما المناهج العلمية، وإن كانت لا تدخل فى حسابها بعض الاتجاهات المشكوك فيها، فهى لا تستطيع أن تتجاهل الأشياء الغريبة التى تشغل بال الجمهور العريض من الناس العاديين أو وجهة نظرهم فى هذا العلم وأصحابه والاكتشافات التى تتحقق فى مجاله.

إن علماء المصريات يستهويهم ويشد انتباههم من بين كل مجالات البحث ما ينتمى إلى الإطار الفرعونى من حيث التقويم الزمنى والمدلول الحضارى. ويتزايد على مر الأيام عدد علماء المصريات الذين يتجهون إلى التخصص وإلى تنويع وسائل عملهم مستفيدين من ممارسات فكرية أو أساليب تكنيكية جربت فى مجالات أخرى. وتتنهى مناهجهم فى العمل بتنوع أوضح بعض الشىء عن الدراسات التاريخية الأخرى. إن التعاون

والتكامل بين علم الآثار والدراسات اللغوية بشكل خاص تمثل في مجال المصريات مسلمة بديهية من الخطأ تجاهلها . ومن هنا تجرى العمليات، فى هذا المجال أكثر منه فى مجالات أخرى، فى إطار دولى متعارف عليه رغم اختلاف فرق الباحثين أو الهيئات العلمية التى يعمل هؤلاء العلماء تحت إشرافها .

ولكننا نستطيع أن نقول أنه فى مصر بشكل خاص تبرز بصورة أوضح القسمات الدولية لهذا العلم . وقد قامت فرنسا تاريخيا، فى البداية، بالدور الرئيسى فى إيجاد مصلحة الآثار المصرية، ثم حلت محلها انجلترا . وبحكم الضرورة، برز هذا الطابع الدولى فى العمليات العظيمة لإنقاذ الآثار المصرية عند بناء السد العالى التى عبئت لها فى زمن محدود فرق من علماء الآثار، جاءوا من كل أنحاء العلم. وفى النهاية يمكن أن نقول إن بعثات الآثار العاملة فى مصر تهيىء فرصة ممتازة للقاءات بين المتخصصين والدارسين المصريين والأجانب.

....

الفصل الأول
جاذبية الحضارة الفرعونية

١- عناصر التشويق

يملك الفن المصرى منذ قديم الزمان القدرة على إثارة الدهشة والتشويق، ويترك انطباعه العميق على الجماهير. لقد أسهمت العمارة الجنائزية والدينية إسهاما غير قليل فى التعريف بالحضارة الفرعونية. إنها العمارة الأولى التى قدمت نماذج متميزة تتسم بأصالة تامة وبأحجام خارجة عن المألوف، كما فى الأهرامات والمسلات والمعابد والتماثيل الهائلة، مما أعطاها مكانة مرموقة لاتضارع على مر الزمن بالنسبة للمدنيات القريبة أو البعيدة تماما عنها.

وإذا ما تجاوزنا سمات التفرد البادية للعيان ، فإن تماثيل الفن المصرى ورسومه وحليه لاتزال لها جاذبيتها بالغة الروعة، والتى تتمثل فى الوقت ذاته فى التعبير ببراعة بالغة عن مظاهر الحياة التى تجعل المتفرج يستشعر أنه ثمة رباط وثيق يربطه بالهياكل التى يتأملها، ويحس كأنه أحد رعايا فرعون منبهرا بالشواهد الخارقة التى تدل على عظمة إلهه المقدس. إن فى الفن المصرى لسحرا لا زالت فتنته تحدث مفعولها حتى اليوم. الفضول الممزوج بقلق مستحب يشارك فيه عن طواعية الكثير من معاصرينا. إنها خليط من المركبات ككمياء العصور القديمة فيها

وليست الطقوس، وفى المقام الأول الطقوس الجنائزية والدينية، غريبة على هذا الفضول الممزوج بقلق مستحب يشارك فيه عن طواعية الكثير من معاصرينا . إنها خليط من المركبات ككمياء العصور القديمة فيها شيء من التخبط ولكنها تحقق تأثيرا، إنها تمزج داخل نفس المرجل عبادة الشمس والآلهة على صورة الحيوانات المتعذدة وانتصار الموميات على الزمن وعناصر أخرى لتقدم فى النهاية المغامرة والأعجوبة.

والمغامر بالتأكيد هو عالم المصريات عندما ينطلق ليكتشف قبرا لم تمسسه يد، أو يبدأ فى حل طلاسم بردية من البرديات. قد يكون هذا المغامر رجلا غلبت عليه ملامح عالم عجوز، تحل عليه أحيانا الحكمة وشرود الذهن وأحياناً معتوها خطرا، أو ملامح عالم آثار بالغ الطموح. وربما كانت المغامرة آنسة رقيقة هيابة مذعورة قليلا دون مبرر كاف. ولكل فرد مطلق الحرية أن يتقمص شخصية هذا أو ذاك من النماذج التى قدمناها أو يبتدع نماذج جديدة بما فيها من عناصر مزج جديدة، ثم يوهم نفسه أنه ليس من الصعب أن يحقق فى ضربة خاطفة اكتشافات عجيبة فاتت على خاطر المتخصصين. من لم يحلم يوما من الأيام أن يميط اللثام عن كنز؟ وأى كنز يفوق فى شهرته هذا الكنز الذى يحوى الأثاث الجنائزى فى قبر الملك توت عنخ آمون؟ إن كل المتطلبات موجودة بين أيدينا : الشمس، الصحراء، النيل، جمال المناظر الريفية المتنوعة، الخضرة الرائعة فى مقابل الجبال

الجدباء، وطأة التقاليد وطيبة الناس. ولا يبقى أمام السائح إلا أن يضل طريقه لحظة، أو أن يترك مرشده وزملاءه لكي يتأكد أن المغامرة لا تنتظر سوى إشارة منه لتبدأ، ثم يعود فى حالة من الارتعاش يحكي لآذان صاغية ماذا كان من الممكن أن يحدث له. وهناك آخرون يقطعون شوطا أبعد وينطلقون فى تنظيم رحلات تغذى أحلامهم فى صور مختلفة.

وربما كان حب الغموض الذى يدغدغ بطريقة مستحبة خيالاتنا أكثر تأثيرا من مذاق المغامرة. ولأسباب كثيرة يرتبط الغموض والأسرار ارتباطا وثيقا بالحضارة الفرعونية وذلك أولاً لأسباب جوهرية: ففى المجال الدينى خصص الكهنة للمريدين أماكن ومعارف خاصة، بينما حاول المسئولون على الصعيد الجنائزى أن يزيلوا بطرق شديدة الدهاء رغبة اللصوص العارمة فى العبث بمحتويات القبور. وثانياً بسبب الرؤية الخاطئة للممارسات القديمة إذ أصبحت الأسرار هى كل شىء لا نفهمه: الهيروغليفية، الآلهة ذات الرؤوس الحيوانية، الأرواح الثعبانية، الرموز بكل أنواعها، القدرة العجيبة على حفظ وصيانة كل الأشياء القابلة للفناء مثل أوراق البردى، الخشب، الحبر وأهم من كل هذا الأجساد المحنطة. وفى مرحلة كانت هذه الطقوس لا تزال حية يمارسها الناس، لجأ اليونانيون على سبيل المثال إلى أوصاف غريبة برهنت على كم هائل من الأشياء غير المفهومة. ولقد أسهم السحر فى المبالغة فى تفسير بعض الوقائع العادية.

فمن تطلع المصريين نحو الحياة الخالدة، هذا التطلع الذى يتجسد فى عنايتهم بإعداد المقابر وفى براعة التحنيط من أجل بعث. فعلى المتوفى، إلى فكرة إيقاع الانتقام المحتوم على من ينتهك قبره، مسافة قصيرة لا يتردد البعض فى اجتيازها. ولكن مهما كانت حيرة الجمهور فى هذه المسائل الشائكة فقد أصبح يفضل الوصول إلى معرفة مباشرة حول الموضوعات القريبة إلى قلبه. ولا يعتبر دور الكتابة هينا فيما يتعلق بانبهار معاصرينا بعلم المصريات، وبالذات فيما يتعلق بظروف فك طلاسم هذه اللغة. لقد تم اكتشاف بعض النظم الهيروغليفية الأخرى، ومازالت بعضها تحتفظ بأسرارها، وهى تشغل اهتمام الناس بين الحين والآخر، ولكن ليس هناك ما يثير الرغبة فى المعرفة مثل النظم الهيروغليفية المصرية. إن الدقة المتناهية فى الرموز المرسومة أو المنحوتة أو المصورة، وخاصة رموز الحيوانات، ليست بعيدا عن هذا الاهتمام المتفانى. إن ما حققه شامبليون من انتصار على هذا الحشد من الحروف المصورة يدخل فى كتاب الأعمال التى تشرف بها البشرية. إنه انتصار على الزمن واستعادة للعديد من الصفحات غير العادية فى ماضينا. ولم يكن شامبليون أول من سار على هذا الدرب، فقد تعرف "يونج" بشكل خاص قبله بعدة سنوات على الطبيعة غير الألف بائية للكتابة الهيروغليفية المصرية. ولكن شامبليون استطاع الوصول إلى قراءة بعض هذه الرموز بفضل تحديده حروف الف بائية فى أسماء ملوك البطالمة الموجودة

داخل الخراطيش، وقد فتح له حجر رشيد الذى يحتوى نماذج من ثلاث لغات إمكانية جديدة من خلال المقارنة، وأكملت معرفته باللغتين اليونانية والقبطية باقى الطريق. واستطاع سنة ١٨٢٢ أن يكتب رسالة إلى السيد "داسيى" السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب تتعلق بألف باء اللغة الهيروغليفية الصوتية. وبعدها نشر لتوه، رغم مرضه الذى عصف بحياته فى سن الواحد والأربعين كتابه "موجز النظام الهيروغليفى" وكتابه المشهور فى نحو اللغة المصرية.

وهناك بجانب شامبليون مجموعة من الشخصيات لها جهدها الملحوظ فى هذا المضمار : أوجست ماريت، جاستون ماسبيرو، سير فلندرز بيترى وجيمس هنرى برستد الذين ألهموا حماسة أجيال من الكبار والصغار. لقد كان لبعضهم نشاط ملحوظ فيما يتعلق بمعرفتهم الحسية بمواقع الحفريات والآثار الهامة، أو بإحساسهم بالتاريخ. وكان لبعضهم نشاط ملحوظ فيما يتعلق بمعرفتهم الواسعة بالمصريين وبالدور الذى لعبوه من أجل ميلاد علم آثار علمى النزعة. وهناك آخرون مثل "كورت زيته" و "أدولف إرمان "وسير" آلان جاردنر" و "ياروسلاف شيرنى" على سبيل المثال، أضافوا الكثير إلى فهمنا العميق للحضارة المصرية بملامحها الأساسية وذلك من خلال دراساتهم للنصوص والمفردات والنحو. إن من حق كل دارس أن يحدد النموذج الذى يحتذيه والأستاذ الذى يتعلم على يديه، وأن يتابع التخصص الذى

يستريح إليه، ولكننا نستطيع أن نقول إن غالبية الباحثين فى علم المصريات والهواة يدينون بالفضل لهؤلاء العلماء وإنجازاتهم.

٢ - مواقف الناس المختلفة من الحضارة المصرية

إذا وضعنا فى الاعتبار اتجاه الناس الراغبين فى اكتشاف حضارة سبقت غيرها، لها مكانتها المرموقة وملامحها الخاصة، فهناك ثلاث خطوات ترضى أصحاب هذا الاتجاه : إثارة الموضوع خلال محاضرات وأفلام واجتماعات موسعة، التردد على المتاحف والمعارض، ثم القيام برحلات.

ويمكن أن نحقق الخطوات الثلاثة التمهيدية وفقا لهذا الترتيب المقترح أو وفقا لأى ترتيب آخر. ويمكن إثارة الاهتمام حول الموضوع من خلال إعلان فى الجرائد عن اكتشاف جديد فى مصر، أو عن طريق حكاية يرويها زميل عائد من رحلة على النيل، أو من خلال رواية تاريخية رائجة، أو مناظرة تيلفزيونية أو لافتة عن معرض. وإذا أدخلنا فى الاعتبار اختلاف الأمزجة والظروف فإن الاتصال الأول الحقيقى مع الحضارة الفرعونية يسلك بشكل أو آخر طريقا مباشرا .

إن اكتشاف مصر من خلال روايات الرحالة لهى ظاهرة قديمة تعود إلى العصر القديم الكلاسيكى، ثم أخذت صورا متعددة أبرزها رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة منذ القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر

بدأ الناس يتطلعون إلى أشياء أخرى، وأصبح السفر إلى مصر هدفا فى حد ذاته للتعرف على آثارها وتقاليدها ومناظرها الطبيعية. وعلى أية حال فلا شىء فى الماضى يعادل الافتتان الحديث بالسياحة فى وادى النيل وفقا للمفهوم أو المدى الذى يشمل هذه الظاهرة اليوم. إنه نتيجة توافق عجيب بين سياسة مصرية تدعم وتشجع هذا التطور وفقا لأساليب ملائمة وبين تزايد عدد الناس الراغبين فى التعرف على مصر. ويلعب هذا الافتتان دورا حيويا فى الإشراف على الميراث الفنى والحضارى وبالتالى فى الاكتشاف العلمى للمناطق الأثرية واستغلالها. إن هذا الافتتان محور قلب كل الاهتمامات فى علم المصريات. ومن هنا تبرز الحاجة إلى التجديد فى تقديم ودراسة كل أثر من الآثار الذى تزوره الآلاف العديدة من الناس كل يوم.

إنها مشاكل لا تقتصر على المواقع المصرية فقط، وهذه المشاكل موجودة فى المواقع السياحية الأخرى ذات المعدل العالى من إقبال السياح عليها. ولكن هذه الظاهرة، هنا فى مصر، ملحوظة بصورة خاصة وتستفحل آثارها سنة بعد سنة، وتتطلب فى حد ذاتها تحليلا عميقا. إن حب الاستطلاع الذى تثيره على سبيل المثال رحلة على النيل، أو إقامة قصيرة منظمة يتحول فى أغلب الأحيان إلى اهتمام غير محدود من جانب هذا الإنسان المبهور الذى يفكر فى التعاقد على رحلات أخرى أطول وأكثر تخطيطا.

يتم أيضاً هذا التعرف التدريجى عبر التردد على المعارض الهائلة الجوالة التى تنظمها المتاحف هنا وهناك بتكاليف باهظة، حيث الجمهور المتوقع يكفى لتحقق هذه المتاحف عائدا يعوض التكاليف، ويخصص المكسب لمشروعات مختلفة لتطوير أعمال الهيئات السياحية والثقافية فى مصر مثل إقامة متاحف جديدة. وتستلهم هذه المعارض مادتها من شخصية ملك مشهور، توت عنخ آمون أو رمسيس الثانى مثلا أو كليوباترا، أو من موضوع محبب إلى قلوب الناس، مثلا المرأة أو الطقوس السحرية والجنائزية، أو الحياة اليومية، أو من موقع بالغ الأهمية، الكرنك أو تانيس مثلا. ولكن هذه المعارض تركز بشكل خاص على «كنوز» مصر القديمة. إن كلمة كنز لها تأثير السحر سواء عن حق أو باطل فى جذب انتباه الناس ليندفعوا إلى هذه المعارض، وهو الهدف الأعلى لكل هيئات الآثار فى مصر وفى كل مكان. ومهما كانت درجة الإتقان فى صنع الكثير من الحلى الفرعونية، فهذا التركيز على محتويات بضعة قبور من شأنه أن يحرف الأنظار عن ثراء هذه المدنية الهائلة. وتكشف هذه المدنية بدرجة كافية عن عوامل الإغراء فيها من خلال تنوع آثارها الفنية مما يبهر قلوب أهل المدن الكبيرة فى أوروبا وأمريكا واليابان، ولا يتعلق هذا الانبهار بأهل المدن الكبيرة فحسب بل أيضا جماعات الناس البسطاء فى الأماكن النائية. إن مصر لا تترك جزءا من العالم غير مبال بها، فهذه المعارض الجوالة بما تتسم به من فترة

عرض محدودة زمنيا تحفز اهتمام الزوار أكثر بكثير من التحف المعروضة بشكل دائم فى المتاحف التى فى متناول أيديهم طيلة شهور السنة .

إن قراءة كتب تدور حول مصر القديمة هى أيضا وسيلة أكثر مرونة وانفتاحا للاطلاع على جانب أو آخر من هذه الحضارة، وإن كان هذا يتوقف على مدى طرافة الموضوع وجاذبيته. وتبدو فى الواقع هذه المادة الطريفة متنوعة، بل حافزة حتى للمحترفين فى هذا المجال. وإذا استثنينا بعض الحالمين الذين جاءوا يتوقعون أن يقرأوا للمرة الألف عن حياة أخناتون، أو أن يُقدم لهم تصورا جديدا جدا عن أسرار الأهرامات المزعومة، فإن أسئلة الجمهور تفرض على علماء المصريات أن يتكشفوا ميادين جديدة، أن يغوصوا فى مشاكل ما زالت غامضة، أن يجمعوا بعض المعطيات المتفرقة حتى هذا الوقت، وأن يعيدوا فحص نظريات قديمة. ولا تخضع عملية اختيار المحاضرين لمقياس شامل عام سواء فيما يتعلق بالأفكار المقدمة أو مستوى التخصص فى المادة المقدمة أو فى أعمارهم. إن البعض تأسره المادة القديمة حتى و لو كانت قد صدرت فى طبعات حديثة، وتشهد بذلك الطبعات الحديثة من كتاب شامبليون عن النحو أو كتاب "وصف مصر". وهناك آخرون قد استولى عليهم الاهتمام بحقبة من الحقب أو شخصية من الشخصيات أو موضوع أو أسلوب معين، والبعض يذهب بهم الأمر إلى حد شراء دراسات علمية لتشفيهم من حماسهم أو

العكس لتزيد من سعاره، والبعض الآخر يقنع باستهلاك مادة مشكوك فى صحتها .

٣ - الانحرافات

تقدم مصر الفرعونية، لما تتسم به حضارتها من إغراق فى القدم والتماين، فرصة مواتية لتغذية شطحات الخيال. وليس غريبا عن ذلك المناخ الفكرى الخاص الذى ساد مصر والسحر الذى كان منتشرا. فظواهر مثل سلطات الملك غير المحدودة، أو المعرفة التى كان يتمتع بها الكهنة، أوطموح الجميع إلى بعث يضمن الخلود، أو المحافظة الاستثنائية على كتابات قديمة تعود إلى ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، كل هذه الظواهر كانت تتنافس لخلق مناخ ملائم لازدهار ألوان من السلوك لا يحكمها العقل بصورة أو أخرى، و دون ارتباط وثيق فى الواقع بالمدنية التى يستلهمونها.

ومن هنا نجد البعض يميل إلى تقديم أنماط من السلوك فى الحياة اليومية «على الطريقة المصرية»، ويميل البعض الآخر إلى إلصاق تفسيرات زائفة فى علميتها على الممارسات التى يجهلون مدلولها. وهناك آخرون يتخذون من هذا البلد وأهله موضوعات فى رواياتهم يمزجون فيها بين العصر القديم والحياة المعاصرة. وتكشف هذه التصرفات التى تعود إلى تراث قديم عن ثقافات أصحابها أكثر مما تكشف عن الحضارة التى تتناولها.

ويعود الهوس بالمصريات – والانجذاب الشديد إلى الحضارة المصرية القديمة وخاصة الفن المصرى ومحاولة تقليدهما – إلى أقدم فترات التاريخ، والفن الفينيقى على سبيل المثال دليل ساطع على ذلك. ويعتمد هذا الهوس بالمصريات اعتمادا وثيقا على هيكل الظروف التاريخية الملابسة. فقد شكلت الحملة الفرنسية ضد مصر، مضافا إليها دور البعثة العلمية التى نظمها بونابرت، الدعوى والدعامة التسجيلية لظاهرة المناداة "بالعودة من مصر". وتمثلت فى كل من العمارة والتصوير والنجارة والحرف الفنية الاخرى. وفى الفترة الحديثة أدت المعارض المتتالية لتوت عنخ آمون ورمسيس الثانى ولاسيما فى مجال الإعلانات إلى مضاعفة الصور عن مصر أو البضائع التى يلصق بها صورة لأحد الفراعنة، فضلا عن الاستعراضات المستوحاة من الطابع المصرى كما هو الحال فى بعض الملاهى الباريسية الكبرى. وليس هناك ما يدعو أن نذهب بعيدا فيكفى أن نشير إلى بناء هرم " اللوفر" الزجاجى الذى وجدت فيه الصداقة الفرنسية المصرية رمزها الأحدث.

ولكن بغض النظر عن هذه الملابسات الحديثة فقد أغرق المهندسون المعماريون والفنانون والتجار فرنسا وغيرها بشكل متواصل بأعمال فنية وبمنتجات مستلهمة بشكل أو آخر من نماذج مصرية. وليست باريس وحدها، ولكن المدن الكبيرة فى الأقاليم وحدائق القصور عرفت وتعرف كثيرا من هذه الآثار

المذهلة. إن هذه المظاهر التى تبدو للوهلة الأولى بعيدة كل البعد عن عالم المصريات هى فى الواقع مرتبطة به كل الارتباط حيث كانت الفكرة الأصلية هى عرض التحف المصرية. إن بعض متاحف الآثار المصرية القديمة تعرض ما لديها من قطع أثرية فى إطار ديكور يقلد بطريقة فجة عالم مصر الفرعونية، بدلاً من أن يحاول إعادة تكوينه أو بنائه بزملائنا الأمريكيين حديثا إلى إضفاء إطار يليق بأعمال "سيسيل ديميل" السينمائية على معرض رمسيس الثانى، إذ ألبسوا المرشدين العاملين فى المتحف غطاء رأس مصرى قديم معروف باسم "نمس" كان يرتديه الجنود المصريون فى فيلم " الوصايا العشر". ومهما كانت القيمة الفنية لهذه الأعمال، وماتتضمنه من مذاق نختلف فى تقييمه، فإن بعض هذه الأعمال شاهدة من جانب على رغبتنا فى الهروب إلى عالم من الأحلام، والتلذذ بكل ما هو غريب، وشاهدة من جانب آخر على روح من الفكاهة لا بأس بها.

إن مثل هذه الظواهر مقبولة فى جملتها، أما التفسيرات الباطنية للديانة المصرية فلا يمكن قبولها. وهذه الممارسات - شأنها شأن الهوس بالمصريات - معروفة منذ العصور القديمة. ومنذ ميلاد هذا الاتجاه فى العصر البطلسى حتى يومنا هذا نجد فيه نفس المزيج بين العلوم والمعتقدات فى مصر الفرعونية والفلسفة اليونانية ومذهب أنصار يهوا، وإن أضيف إليه اليوم العديد من الأفكار والمعتقدات القادمة من المسيحية ومن ديانات

الشرق الأقصى، ولا يجدر بنا - بل يكون من باب السذاجة - الخوض فى مناقشة مدى أصالة هذه الممارسات، فكل ما فى الأمر هو أن هناك دائماً على مر تاريخ الإنسانية أناساً تحسّ بالحاجة إلى التعبير عن بعض جوانب حياتهم وعن تطلعاتهم من خلال لغة رمزية مقصودة الغموض، وتمثل الترجمات البالية المتخلفة للنصوص الدينية المصرية القديمة مادة لا تنضب لمثل هذه الخزعبلات التى قد تتخذ شكل طقوس تجرى فى المعابد أو داخل هرم خوفو كان كهنة مصر الفرعونية بكل تأكيد سيدمغونها بالكفر والهرطقة، إن محاولة إضفاء تقييم علمى على هذه الممارسات يصبح فى الواقع شيئا مجردا من أى مدلول تماما كمحاولة إدماجها فى علم المصريات، ومن سوء الحظ أن بعض الكتاب غير المتمرسين أو غير المدققين لايعطون القارىء العادى الفرصة ليميز بين هذين النمطين اللذين لا يجمعهما سوى علاقة واهية جدا، ومما يضاعف من الإحساس بالضيق ظهور تلك الأعمال التى تتخذ مظهرا علميا لمجرد أن تثبت صحة نظريات باطنية غير عقلانية مبهمة مثل كتاب "المعبد داخل الإنسان" لمؤلفه "شفالر دى لوبتش"، أو الأعمال التى تخلط عن وعى بين الحقائق الثابتة والافتراء الرخيص بهدف الكسب المادى.

إن القاسم المشترك بين هذه الأعمال السابق ذكرها وبين بعض الأعمال الأدبية الخيالية هو استغلال التاريخ أو الحضارة الفرعونية لأهداف غريبة عنهما، ولكن المقارنة تتوقف عند هذا

الحد. إن مصر هى هنا منبع الإلهام ولكنها بدرجة أو أخرى تستغل بحسن نية. وفى وسع المؤلف عند التعرض للواقع الفعلى القديم والحديث، أن يتباعد عنه بهذه الدرجة أو تلك كيفما يروق له. وعلى القارىء أو المتفرج أن يختار ما يقرأ أو يرى وفقا لنوعية العمل الفنية، لا وفقا لمدى صحة المعطيات المستغلة. وشىء طبيعى أن يأسف المرء لما يلمسه من فقر فى الخيال فى مجالات مازالت النشاطات اليومية فيها مثيرة فى حد ذاتها إلى أقصى حد. ولكن الناس فى عمومهم يعرفون - رغم أنهم يتظاهرون بالنسيان - أن مجرد تصفح رواية أو التطلع فى كتاب مصور عن مصر القديمة غير كاف على الفور لتثقيفنا عن تلك المدنية. بالطبع هناك كتب تثقيفية للأطفال ولكنها تلزم جانب الصدق التاريخى، وهناك أعمال استمدت مادتها مباشرة من وثائق موثوق فيها، وتقدم قدر الإمكان «شريحة من الحياة» بما فيها من أشخاص كانت موجودة بالفعل وحققت ما كتبه المؤلف عنها، ونطقت بعض العبارات التى أنطقهم إياها المؤلف. ولكننا نستطيع أن نقول فى نفس الوقت أنه من الندرة بمكان أن تجد شخصيات مصرية ونعرف عنها الكثير من التفاصيل التى تكفى لبعثها إلى الحياة دون أن نستعين بالخيال أو دون أن نستعير بعض الملامح من شخصيات أخرى معاصرة لها. ولقد كان المصريون القدماء أنفسهم رواد هذا النمط، إذ اتخذوا السيرة الخاصة لبعض الأشخاص المسجلة عادة على المقابر مادة أولية لأعمال أدبية

كثيرة. إن قصة سنوحى مثال بالغ الدلالة فى هذا الصدد. وقد أخذ الكاتب الفنلاندى "ميكا فالتارى" سنوحى، وهى الشخصية الرئيسية فى هذا العمل الخيالى الذى يعود إلى الدولة الوسطى، وجعله البطل فى روايته المسماة " سنوحى المصرى"، ولكنه تجاوز إطار التاريخ البدائى ليرسم صورة رائعة فى ألوانها عن الحياة على ضفاف النيل، وهذا فى حد ذاته لا يحط على الإطلاق من موهبة الكاتب أو المحصلة النهائية للعمل. إن بعث هذه الشخصيات بالاعتماد على ذكريات الأقدمين لابد أن تكون مصدر فرح لهم، رغم التفاصيل غير الدقيقة التى تظهر هنا وهناك. ومن هنا تشكل هذه الأعمال واحدا من شروط استمرارهم فى الحياة بعد موتهم، وتلتحم ممارساتنا الحديثة، وهى بعيدة فى حد ذاتها عن الحقيقة التاريخية، بالمعتقدات المصرية.

٤ - وسائل الإعلام

تلعب وسائل الإعلام دورا أساسيا متعدد الأوجه فى العلاقة بين المحترفين من علماء المصريات والجمهور العريض. ولوسائل الإعلام وظيفتان أساسيتان : وظيفة النشر ووظيفة الإعلام اليومى. وبالطبع يعتمد نشر المعلومات على الاستفادة من كل الوسائل الموجودة للوصول إلى أعداد متزايدة من الناس ، و لكن فى الواقع تقوم الصحافة المتخصصة و دور النشر بالدور الأساسى فى هذه العملية. أما وسائل الإعلام كالتيلفزيون

والصحافة اليومية لا تزيد فى الغالب عن التعليقات السريعة على الأحداث التى ترتبط بعالم المصريات : اكتشافات، محاورات حول موضوعات الساعة، افتتاح معارض، وتقديم أعمال ظهرت حديثا، وغير ذلك.

وبدأنا نلحظ أخيرا الاهتمام بنشر كتب عن علم المصريات كما فى المجالات الأخرى من التاريخ. ولكن لزمن طويل ظل علماء المصريات مُعرِضُون - فيما عدا حالات استثنائية - عن تضييع وقتهم الدراسى واستنزافه فى مثل تلك الأعمال الدراجة. كما أن ندرة الكتب الجيدة عن مصر القديمة الصالحة للقراءة العامة تمثل مشكلة سببها «شباب» هذه المهنة: إن علم المصريات فى الواقع علم حديث وقد احتفل بعيد ميلاده المئوى سنة ١٩٨١. وإذا كان الممثلون الأوائل لهذه المهنة لم يتورعوا عن كتابة مؤلفاتهم، فقد دفع التقدم المتواصل فى هذا المجال العلماء فى منتصف القرن العشرين إلى لون من الدقة المتأنية. ولكننا نضيف أن مؤلفات علماء المصريات الأوائل لها تمايزها لا بالنسبة لعصرها فحسب. ولهذا فرض على جمهور القراء أن يقنعوا حتى فترة متأخرة بدراسات قديمة أعيد نشرها مرات كثيرة، وبكتابات مجمعة من هنا وهناك كتبها على استعجال مؤلفون غير مدققين غير متمرسين بخلاف الكتاب المحترفين، وفيها من الأخطاء أكثر مما جاء فى الكتب القديمة. ولقد اختفى لحسن الحظ هذا الوضع شيئا فشيئا وبدأت العودة إلى الاستفادة من الكتاب الأكفاء. ولكن

إذا كانت رفوف المكتبات ما زالت عامرة بكتب تتسم بشطحات الخيال يدعي أصحابها أنها دراسات علمية، فالقراء لديهم حرية الاختيار فى انتقاء الأعمال الجادة الجذابة، بدرجة أو أخرى.

ويساعد الجمهور فى الاختيار تلك المجلات واسعة الانتشار مثل "اركيولوجيا" و "عالم الكتاب المقدس" و " العلوم والمستقبل" و "التاريخ" وبعض المجلات الأخرى التى تستعين بمحررين واسعى المعرفة بالموضوعات المطروحة، ويزودون مقالاتهم بقوائم للمراجع الجادة للقراء الذين استرعت انتباههم هذه المقالات. وتخصص هذه المجالات أحيانا مقالا أو ملفا أو عددا كاملا حول موضوع أو منطقة من مناطق العالم. أما – موضوعات الكتب أو الدوريات فهى تارة من اقتراح المحررين وتارة أخرى من اقتراح المؤلفين. وتسمح هذه المرونة بالإجابة على أسئلة غير المتخصصين، واستثارة فضولهم فى نفس الوقت حول أحدث الأبحاث، وذلك فى صورة تتلاءم مع تطلعاتهم واحتياجاتهم دون خداعهم أو إصابتهم بالملل.

ويحدث أن تظهر أفلام تسجيلية تصور أعمال الآثار تقدمها هيئات عامة – المركز القومى للبحث العلمى أو معاهد الاثار فى مصر أو الجامعات أو تليفزيون الدولة – أو هيئات خاصة أو فى إطار إنتاج مشترك. ولكن هذه المبادرات نادرة جدا وتقليدية لكونها محدودة وصعبة التنفيذ بسبب التكاليف الباهظة والعائد المحدود، وهذا يرجع إلى ظروف العمل الخاصة فى مجال الآثار.

إن الاعتماد على التقاط الصور بشكل يومى شيء لاغنى عنه إذا أردنا تجنب التصنع والتكلف فى إعادة تصوير مناظر الاكتشافات التى تمت دون الاستعانة بالكاميرا. ولكن هذا يؤدى إلى ضياع وقت ملحوظ على حساب عالم الآثار وتقديم صورة ساذجة فى النهاية، لاحياة فيها أغلب الوقت. وبالعكس ليس كل ما يدور فى الاكتشاف مثيراً بالنسبة للمشاهد الذى ليست لديه فكرة واضحة عما يرى. كما أن إخراج فيلم تسجيلى، مثله مثل الفيلم العادى، لا يعفى مؤلفه من كتابة سيناريو وخلق إيقاع فى المونتاج. وسيؤدى الاستعمال المتزايد للكاميرات الڤيديو فى المواقع الأثرية والتعاون الأوثق بين المحترفين فى السينما وفرق علماء الاثار إلى تنافس بين وسائل الإعلام المسموعة والمرئية وبين النشر فى بعض مجالات المصريات.

إن استعادة التاريخ وتقديمه من خلال المادة المكتوبة أقل تعرضا للمخاطر من تقديمه على الشاشة البيضاء لأن التفاصيل والأخطاء تتركز عليها الأضواء فى الأفلام وتصبح أكثر وضوحا وبروزا. ولكن هناك عناية ودقة فى اختيار الملابس والديكور والقرب من الحقيقة فى بعض الأفلام دون غيرها، كما هو واضح فى فيلم جرزى كافاليروفيش المسمى "فرعون". ولكن الادعاء بأن فى الإمكان الخروج من مجال الخلق الفنى والتركيز على إعادة تقديم المادة التاريخية فى صورة طبيعية بسيطة شيء غير معقول، ولهذا بدلا من نقد أفلام مثل "الوصايا العشر" و "مغامرو

السفينة المفقودة "التى تتسم بالكثير من الحرية فى معالجة الخلفيات التاريخية التى يستخدمونها، يحسن أن نجهد أنفسنا أكثر فى تقديم أعمال تمتزج فيها الموهبة مع العلم، ولم لا تمتلك روح الدعابة لتأتى فى صورة أفضل إذا كان هذا ممكنا؟ إن الاكتشافات الأثرية العظيمة أكثر صلاحية من الروايات الفرعونية للعرض السينمائى، فى صورة أقرب إلى الواقع. ويمثل على سبيل المثال فيلم "المومياء" الذى أخرجه شادى عبد السلام استعادة رائعة للأحداث التى سبقت اكتشاف الخبيئة المشهورة فى الدير البحرى ونقل التوابيت الملكية على السفينة التى حملتها إلى المتحف المصرى، هذه التوابيت التى تنتمى إلى الإمبراطورية الحديثة، وكان كهنة آمون الكبار قد قاموا بتهريبها وتخبئتها أيام مرحلة الانتقال الثالثة خوفا من أطماع اللصوص. ويتضمن هذا الفيلم مناظر تتسم بالجمال والصدق فى آن واحد. وهناك المجلد المصور الذى قدمه "أدجار. ب. چاكوبس" واسمه "سر الهرم الكبير" الذى يعيد تقديم المناطق المصرية القديمة كما كانت عليه فى بداية القرن بنجاح شديد.

أما الإعلام اليومى فهو فى حاجة إلى تطوير، إذ أن عدم الدقة فى برقيات وكالات الأنباء الخاصة بالمصريات تجعلنا نشك فى صحة الأنباء التى تتعلق بمواضيع أكثر خطورة... ومع ذلك مازلنا حتى اليوم، فى الصحافة أو من خلال اتصال تيلفونى يقوم به صحفى، نحاط علما بأحداث فجائية تمت فى هذا الموقع

أو ذاك. ولكن بالإضافة إلى أقل اكتشاف يحوطه التهويل، وتصل المبالغة إلى حد مقارنته بمعجزة شامبليون فى حل رموز اللغة الهيروغليفية أو اكتشاف كارتر لمقبرة توت عنخ آمون، فالأنباء تذاع عادة قبل أن تراجع بصورة جدية، ثم تسقط بعد ذلك فى عالم النسيان وتصبح شيئا منسيا، ولكن مشاعر إعجاب المستمع أو المشاهد أو القارىء لايخف نبضها رغم ذلك.

٥ - روح الهواية «المستنيرة»

من بين ملايين السياح الذين يتجولون فى مصر كل سنة، زوار المعارض المختلفة، قارئو الكتب رفيعة المستوى أو الغارقة فى الخيال ومشاهدو أفلام التاريخ المصرى القديم، هناك كثيرون ينجذبون بشدة إلى المصريات ويتحرون ويسألون حول الموضوع، ويشكلون جمهورا متماسكا من الأوفياء للدراسات المصرية. وهم بدرجة أو أخرى يملكون الوقت الفراغ، ويصرون بطريقة تدعو إلى الإعجاب على متابعة دراسات صعبة والاستمرار فيها ربما حتى الوصول إلى مستوى القيام بأبحاث. إنها ظاهرة حديثة على الأقل فى مستوى انتشارها، وأدت إلى استجابة متفهمة من قبل الجامعات والمتاحف والهيئات الخاصة. وتتمثل المرحلة الأولى فى هذا الاهتمام المجهد فى الارتباط بهيئات علمية تنظم عقد المؤتمرات وإقامة حلقات للمناظرة وترتيب رحلات. وتتمثل أيضا فى تسجيل أسمائهم فى حلقات دراسية تنتهى أو لاتنتهى

بامتحانات فى المواد المدروسة. إن هؤلاء الدارسين الجدد من كل الأعمار ومن كل المجالات ومن كل المهن سواء فى باريس أو فى الأقاليم، فى المانيا أو الولايات المتحدة الامريكية، فى انجلترا أو ايطاليا، يدرسون فى أغلب الأحيان بطريقة أكثر انتظاما من الطلبة التقليديين، بل يعتبرون فى أحيان كثيرة قدوة وحافزا لهؤلاء الطلبة.

ولاينحصر شغفهم فى بعض الفروع الأسهل والألطف من الأخرى. إنهم يحاولون الولوج على سبيل المثال إلى الدراسات اللغوية ونظم الكتابة التى عرفتها مصر القديمة، وبهذا يتحول هؤلاء الهواة الذين لديهم بعض الوقت الفراغ إلى متمرسين فى هذه المجالات بصورة جيدة، ليس فى مجال لغة مصر الكلاسيكية ولكن فى المراحل الأخرى من الكتابة واللغة المصرية. ولايمكن أن نعتبر الشغف الشديد لدى هؤلاء الناس أو وفرة الوقت الفراغ أسبابا كافية تفسر هذه الحماسة التى تدفع إلى جهد شديد فى دراسات بالغة العمق والدقة. و دون محاولة الدخول هنا فى لغز الاندفاع الجامح الذى يتملك هؤلاء الناس العاجزين أنفسهم عن تقديم تفسير له، نجد أنفسنا مضطرين إلى القول إن هذه الظاهرة التى ليست فى الواقع جديدة كل الجدة، تكتسب إلى حد ما رسوخا مدهشاً فى مجتمعاتنا الحديثة.

إن هذه الدراسات المتقدمة التى تتوالى وفقا للظروف فى إطار رسمى أو غير رسمى، ولكن دائما تحت إشراف أفضل المتخصصين، حتى لا تعانى من السطحية، تنتهى بالوصول إلى تطبيق محدد ملموس مثل القيام بأبحاث فى صورة منفردة أو فى إطار فريق من علماء الآثار، أو الاشتراك فى حفائر أو نشر دراسات منفردة أو جماعية. وقد ينتهى هذا المشوار الدراسى بالانضمام - بدون مقابل فى أحيان كثيرة - إلى هذه المهنة. ويقوم هؤلاء الهواة الذين شكلوا جمهور المستمعين إلى المحاضرات فى الندوات بدورهم فى عرض النتائج التى توصلوا إليها وذلك فى إطار الجمعيات العلمية أو المؤتمرات. ولما كانوا يخضعون فى أعمالهم بشرف لكل المتطلبات العلمية وأخلاقيات المهنة، فهذا كله يحسب لهم ويقبل منهم بكل رضى. وينضم بعض هؤلاء الهواة أصحاب الكفاءات الخاصة إلى لجان جمعيات علماء المصريات بل وقد يقومون بحلقات دراسية و بعثات علمية. وهذا بعد إضافى اكتسبته هذه المهنة.

وفى نفس الوقت يخلق هذا الاهتمام المتزايد الذى يبديه معاصرونا وضعا جديدا، حيث تصبح روح الهواية التى حددنا معالمها، أى الهواية الجادة، ضرورة يختارها الكثير من دارسينا التقليديين. ولا يسير التزايد الفعلى لعدد الدارسين الآن بنفس معدل تزايد الموارد المطلوبة. وفى نفس الوقت يتناقص

استعدادهم لتأجيل إدراجهم فى الحياة العاملة إلى ما بعد الانتهاء من مرحلة الدراسة، ولهذا يخضعون دراساتهم لواقع متطلبات حياة بسيطة متواضعة ولكنها منتظمة، إذ أن قلة فرص العمل المضمون تضطرهم إلى ذلك. ولهذا تضطر الأغلبية العظمى من الدارسين التقليديين فى علم المصريات إلى أن يجدوا عملا خارج المهنة، وأن يقبلوا حياة الهواية، وهو اختيار يقبله بعضهم عن طيب خاطر.

ولهذا يجد المحترفون فى علم المصريات أنفسهم مواجهين بوضع غريب: حيث يزيد إلى درجة كبيرة الاهتمام الذى ولده هذا العلم بين أعداد واسعة من الناس عن الإمكانيات التى تضعها مجموع الهيئات المهتمة بعلم المصريات تحت تصرفهم، مما ينشأ عنه وضع يصعب علاجه. ولا يمكن إيجاد توازن إلا من خلال بعض المبادرات الذكية الخاصة الجادة الموثوق فى نتائجها. وتتمثل بعض هذه المبادرات فى مشروعات قصيرة الأجل، وبعضها تهيىء العمل للشبان العاطلين الحاصلين على الدكتوراه فى علم المصريات، الذين ربما كانوا فى مرحلة سابقة طلبة مقيمين فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة. وتتمثل هذه المبادرات أيضا فى عقد محاضرات جانبية مكملة لمحاضرات المعاهد المتخصصة. ويستند هذا التوازن أيضا على أمانة أصحاب هذه المبادرات الذين لا يهابون أن يواجهو المصاعب الحقيقية الموجودة

فى مجال المصريات بدلا من أن يركنوا إلى تقديم دراسات ذات إغراء مصطنع.

٦ - التدرب على المهنة

إن ما نتعارف على تسميته «دعاء المهنة vocation» فى مجال مثل علم المصريات يكشف عن نفسه فى صور متعددة. إن إغراءات الحضارة الفرعونية التى تلعب دائما على أوتار حساسة، وخاصة عند الغربيين، ليست غريبة عن هذا الانجذاب العميق والدائم عند بعض الناس بحيث يقودهم إلى مستوى الاحتراف. وليس هذا الإصرار - الضرورى للتغلب على كل العقبات الطارئة - شيئا عفويا يأتى من السماء. لابد أن يسمح هذا الإصرار لأصحابه أن يوائموا بين مطامحهم التى لا تخلو فى الغالب من التجريد أو المثالية وقوانين الحركة الفكرية التى تدور هذه المهنة فى رحابها. إن هناك فارقا ضخما بين الرغبات المراهقة ومتطلبات البحث العلمى اليومية ثم بين هذه والمسئوليات التى قد تؤول إلينا بعد خمسة عشر أو عشرين سنة من الجهد لكى نستطيع أن نحقق بعض الشيء أحلامنا القديمة. ومن حسن الحظ أن تنمو هذه الأحلام مع نمونا و تتلاءم بشكل أفضل مع الفرص المتاحة التى من الأفضل انتهازها عندما تلوح أمامنا حتى وإن اتخذت صورة جديدة لم تكن فى خيالنا.

وتستغرق الدراسات المطلوبة فى علم المصريات وقتا طويلا، قبل أن تسمح للإنسان بالاشتراك الفعلى النشط فى الأبحاث. ويمكن القول إن هذه الدراسات لا تنتهى أبدا. ولكن أصحاب الميول والمواهب المبكرة يحققون طفرة هامة إلى الأمام عندما يبدأون فى التحضير للعمل منذ دراستهم فى المرحلة الثانوية، وهذا يفيدهم من أوجه كثيرة : أن يزيدوا من معارفهم فى مجال أو آخر، أن يصبحوا من بين أحسن المتخصصين فى فرع معين، أن يحصلوا على تكنيك حديث وأن يشرعوا فى أعمال تتطلب جهدا كبيرا وغير ذلك.

وتختلف الطرق التى تؤدى إلى احتراف علم المصريات و تتنوع وفقا للأفراد والبيئة والفترة والظروف والبلد. وبالطبع توجد مراحل جامعية كلاسيكية مختلفة فى طول مدتها. ولكن لو سألنا عددا من علماء المصريات نختارهم بطريقة عشوائية، لاكتشفنا أن لكل واحد منهم مدخله الخاص إلى هذا العلم. وبالطبع لابد أن يكونوا قد سلكوا خطوات مشتركة أساسية فى تكوينهم العلمى. ولكن لكونهم قد جاءوا من مجالات مختلفة فاختيارهم نابع منهم لأنهم يواجهون ظروفا خاصة توجههم، كل واحد وفقا لأسلوبه، إلى أبحاث لاتتسم بالتشابه قدر ما تتسم بالتكامل، إذ تلعب الشخصية والإصرار حقا دورا أساسيا فى هذه العملية. وينطبق هذا الكلام، حتى فترة حديثة على الاختيارات التى كانت تميل إلى الدراسات الكلاسيكية واللغات الشرقية والاهتمام بمصر

بشكل عام. ولكن تطور التعليم – فى فرنسا على الأقل – يطرح أعدادا متواصلة متزايدة من الدارسين الذين يفكرون جديا فى الوصول إلى اللغات القديمة من خلال اللغة المصرية. إن هذا المنحى الذى يتسم على الأقل بطموح وجرأة شديدة غالباً ما ينقصه معرفة باللغات الحية التى لا غنى عنها للوصول إلى المراجع المتخصصة المكتوبة باللغات الاوروبية الأساسية، الإنجليزية، الألمانية، الإيطالية، الروسية، الهولندية والأسبانية. وليس هناك ما يدعو للغرابة أن نجد وفقا لهذا الوضع كثيرا من الدارسين فى أول طريقهم فى مهنة المصريات ينتابهم بسرعة اليأس أمام المتطلبات الأولية لمثل هذه المهنة.

أما هؤلاء الذين يملكون إعدادا أفضل، أو يواجهون أوجه النقص عندهم بشجاعة ووضوح، لابد أن يمروا بنفس مراحل التكوين التى مر بها الجيل السابق عليهم. وحتى إذا كانت الاختلافات تبرز بشكل سريع فى اختيار المواد الدراسية والمناهج والإعداد، فلا يمكن أن تتحقق بداية التخصص قبل أن يتملك الطالب الأسس الضرورية من أجل القيام بأى بحث. وكلما اتسعت هذه الأساسيات زادت قدرات دارس اليوم وباحث المستقبل فى مرحلة التشكيل. وكلما استفاد بوجهة نظر كاملة حول الموضوعات التى يشرع فى دراستها، عرف الطريق إلى مجالات التعاون التى هو فى حاجة إليها. إن ميادين علم المصريات وتخصصاته المتعددة واسعة للغاية تماماً مثل الفترة

الزمنية التى تمتد فيها الحضارة المصرية. ولهذا سيكون من الغباء أن ندعى التخصص فى فترة مبكرة أو فى مجال ضيق جدا، أو الرغبة فى تناول كل شيء فى أعقاب مرحلة التخصص، ولهذا ينصح الأساتذة تلاميذهم أن يتابعوا دراسات أخرى غير التى يتلقونها على أيديهم، وألا يحصروا أنفسهم فى مجرد قراءة الأعمال الوحيدة الأساسية الخاصة بدراساتهم... الخ.

وبغض النظر عن التكوين الأولى للدارس، وعن شهادة الليسانس التى اجتازها، فإن المناهج والحلقات الدراسية المتخصصة التى تعتبر بداية للبحث من زواياه المختلفة شيء لاغنى عنه قبل أن يفكر فى التحضير لشهادة الماجستير أو دبلوم الدراسات العليا أو الدكتوراه. وتفرض مثل هذه الدراسات على الدارس الإقامة فى مصر سواء للانتهاء من عمليات التوثيق أو الاشتراك فى بعثات التنقيب عن الآثار أو تسجيل نصوص، أو لمجرد زيارة المواقع وتكوين رؤية شخصية. لقد أثبتت التجربة أن البدأ بأعمال الحفريات أو دراسة النصوص أو تسجيلها من منطلق نظرى بحت، يخفى فى طياته بالنسبة لعالم المصريات الذى تشكل على هذا النحو مفاجآت أليمة، ولهذا لا داعى لدعوى البدء من النهاية أو إيفاد دارسين غير معدين الإعداد الكافى لظروف العمل الواقعية مما يهدد بضياع الوقت. ذلك أن الفارق شاسع بين النص الهيروغليفى المطبوع والنص الذى نجده مسجلا على الآثار الحقيقية، أو بين التعليق على قطعة أثرية

محفوظة فى متحف من المتاحف أو على خريطة محفوظة فى مكتبة، وبين الإلمام بمادة أثرية ومعالجتها عند التنقيب. ليس إذن هذا الجانب من التكوين مسألة اختيار حر وليس مرحلة تأتى فى نهاية المطاف، ولكنه عنصر أساسى من الأفضل أن يكون متوفراً فى فترة مبكرة قدر الإمكان.

وهناك احتمالات كثيرة تطرح نفسها أمام علماء المصريات الشبان، عندما ينتهون من مرحلة الدراسة واجتياز الامتحانات وتقديم الرسائل الجامعية والحصول على شهاداتهم العليا، عندما يحصلون على عمل أو ينتظرون الحصول عليه: إما سنوات من الأبحاث داخل معهد للآثار فى مصر، أو بعثة إلى مركز من مراكز الآثار أو موقع من مواقع الحفريات أو منحة دراسية... الخ. وبطرق مختلفة وفقا لاختلاف الظروف وعوامل المنافسة المتزايدة، يستطيعون أن يضعوا فى التطبيق معارفهم ويكتسبون معارف جديدة سواء بالتعاون مع هيئات عامة أو منفردين بعمليات أكثر تواضعا و لكنها خلاصة تفكيرهم الخاص. إن النوعين من الخبرة مفيدان ويسمحان بالاستفادة من الفرص المتاحة : نشر عمل يدور حول أثر من الآثار، أو الاشتراك فى عمل جامع، أو الاشتراك فى أعمال مسح تمهيدية فى منطقة من مناطق لم يتم التنقيب فيها بعد... الخ، مما يسمح بين الوقت والآخر بعمل مجهودات أخرى شخصية. إن هذه المرحلة القائمة بين التمكن من تخصص أو عدد من التخصصات وبين القيام

بمسئوليات الوظيفة هى فترة لها مميزاتها رغم أنها تتم خلال ظروف مادية تختلف من شخص إلى آخر، فترة لا نقدر أهميتها وقيمتها الحقيقية إلا بعد انقضائها بوقت طويل. إنها أيضا اللحظة التى نبدأ فيها فهم مصر والمصريين، وفى حدود الإمكان اللهجة العربية المصرية. إنها خبرات تحدد كل تصرف لاحق.



الفصل الثانى
مجالات علم المصريات

رغم أن علم المصريات يعنى عموما الدراسات المتعلقة بمصر الفرعونية إلا أنه ينطبق فى الواقع على مصر القديمة فى عمومها، ويمتد شيئا فشيئا ليشمل بالضرورة المراحل القريبة مثل العصور الوسطى والحديثة والمعاصرة، ويشمل أيضا جغرافية مصر الطبيعية والبشرية وخصائص الشعب المصرى. وتتعدد المسالك المستخدمة لاستعادة صورة الماضى، وتحفل الأبحاث التى تدور حول بقايا لغوية أو حضارية قديمة التى ما زلنا نشهدها حتى عصر قريب بنتائج رائعة. أما فيما يتعلق بالدراسات حول البيئة والإطار الجغرافى وغيره من الموضوعات فهى اليوم أدوات مكملة ما كنا لنستطيع دونها أن نفهم الظروف الملابسة للتطور الأركيولوجى. إن هذه الفروع الدراسية بالطبع علوم فى حد ذاتها ونهتم بها بقدر إسهامها فى دراستنا لعلم المصريات بالتحديد.

١ - الحضارة الفرعونية

تمثل الدولة المصرية منذ ميلادها حوالى ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد حتى غزو الإسكندر وحدة شديدة الترابط سواء فى أيديولوچيتها أو فى مظاهرها المادية. ومع ذلك فإذا حصرنا

أنفسنا في هذه الآلاف الثلاثة في كل المجالات التي تجلت فيها هذه الحضارة، فأمامنا مجال هائل في البحث لمئات المتخصصين خلال أجيال عديدة. ويبدأ هذا الطريق الطويل باكتشاف المصادر، سواء كانت على صورة آثار أو كتابات أو رسوم أو أي شيء آخر، ودراستها ونشرها ثم تكاملها مع تراث الدراسات التسجيلية حتى ينشر العمل ويرى النور في صورته الأولى. ولكن لا يمكن اعتبار هذا العمل الكلمة النهائية في الموضوع، لأن كل اكتشاف جديد يتيح لنا فهما وتفسيرا أكمل للاكتشافات السابقة.

وهناك إقبال على بعض المجالات أكثر من غيرها حسب المعايير الداخلية أو الخارجية لهذا التخصص. ولهذا فلا عجب أن اعتبر علماء المصريات الأوائل - إلا في حالات استثنائية نادرة - أن دراسة المعابد الكبيرة التي ألقت الأضواء الكاشفة على الديانة والفن المصريين والأهرامات والمقابر الملكية والخاصة، أكثر سحرا وثراء من أنقاض الطوب اللبن شواهد الحياة اليومية لسكان وادي النيل القدامى. أما الشغف المبالغ فيه بمرحلة تل العمارنة فهو يتعلق في المحل الأول بالتفسير المتعسف المصطنع ومحاولة الوصول إلى أوجه شبه متكلفة مع الديانات التوحيدية أكثر مما يتعلق باهتمام علمي بعناصر التجديد الحقيقية لهذه السياسة الشجاعة. وهناك موضوعات أكثر حساسية من موضوعات أخرى كما هو الحال مع مرحلة العمارنة أو موضوع الرمزيات على سبيل المثال. ويندر أن يمنع المرء نفسه من

الوصول إلى نوع من الهذيان يشبه ذلك الذى قد أثار سخريته عندما كان زملاء له ينحدرون إلى نفس هذا المنزلق.

وتلعب أيضا تيارات الفكر والأبحاث فى العلوم الأخرى القريبة دورا لا يمكن إهماله فى بعث الحياة فى فروع كانت مهملة لفترة من الوقت. لقد أصبحت المواقع السكنية التى كانت شيئا مهملا على حساب الاهتمامات الدينية والمقابر الملكية بما فيها من كنوز النصوص والحلى، دراسة عصرية رائجة بفضل أعمال "ف. ج. تشايلد" V.G.Childe عن التجمع والتحضر السكانى والمجتمعات المتحضرة فى العالم كله. إن اكتشاف نصوص مسجلة على مواقع سكانية فى دير المدينة ليس شيئا غريبا على هذا الاهتمام الجديد، لأنه بدلا من أن يتعامل الإنسان مع مجرد بقايا جدار أو أنقاض مهملة تركها سكان هذه البيوت، فإن دراسة التجمعات السكانية تلقى أضواء مختلفة، لأن هذه الوثائق التفضيلية تبعث الحياة فى الأحداث الصغيرة والكبيرة التى جرت هنا وهناك، وتكشف عن التنظيم الذى كان سائدا. ثم إن النتائج التى وصل إليها البعض تجذب آخرين إلى نفس المجال.

ويمكنك أن تتبع تراثا متميزا داخل البلدان الأساسية التى اهتمت بدراسة المصريات. لقد أثر رواد نهاية القرن الماضى فى أجيال لاحقة وخلفوا وراءهم وثائق لاحصر لها لم ننته بعد من دراستها. وهكذا أوجد "ف. بترى" F. Petrie جماعة من علماء الآثار العاملين فى المواقع الأثرية المختصين بدراسات تفصيلية،

بينما احتكر الفرنسيون إلى درجة شبه كاملة النصوص المعروفة باسم "نصوص مرحلة البطالمة"، أما الامريكيون فهم مشغوفون بدقائق التقويم والكشف عن الملوك وشركائهم الذين غيروا فى النقوش الأثرية فى المعابد الكبرى ونسبوها إلى أنفسهم. ويمكن أن يؤثر الأستاذ اللامع فى أجيال عديدة، هذا إذا كان تلاميذ الجيل اللاحق له يتميزون بشخصية قادرة على أن تجذب آخرين فى ركابهم. كما أن وفاة بعض علماء المصريات الذين تركوا وراءهم منذ زمن بعيد وثائق هائلة لم تنشر فى حياتهم أدت إلى ازدهار حركة واسعة من الدراسات حول هذه الوثائق. واليوم فإن التزايد السريع فى حجم الأعمال المنشورة سنويا وتنامى عناصر جديدة يشجع على خلق روح من التعاون الدولى فى مجالات الأبحاث، رغم سيادة بقايا العزلة التى كانت سائدة بين مدارس علم المصريات .

وهناك لون من الدراسات مورس على مراحل مختلفة ولكنه يعود الآن ليحتل مكانة مرموقة، وهو دراسة الصلات بين مصر وغيرها من البلدان على طول المراحل المختلفة فى تاريخها. وعلى أساس تطور الأبحاث الميدانية فى الأراضى المتاخمة لمصر مثل سيناء والنوبة والصحراء الشرقية، حصلنا على مادة علمية جديدة سمحت لنا أن نفتح من جديد ملفات كنا قد انتهينا من توثيقها، ونعيد النظر فيها لا على أساس دراسات جزئية فحسب بل على أساس العوامل المحركة لسياسة ملتحمة على صعيد

الحدود المختلفة المتاخمة لمصر من نظام من الحكم إلى نظام آخر. وتضيف المقارنة بين هذه النتائج والمعلومات التى يقدمها كل موسم من مواسم الحفريات فى المواقع الأثرية فى فلسطين وسوريا وقبرص أو أماكن أخرى الجديد إلى هذه النتائج، تؤكدها أو تضفى عليها ملامح جديدة. وبالإضافة إلى أشكال الدراسات التقليدية، تتعايش جنبا إلى جنب كل أنواع الدراسات سواء فى صورة منفردة أو ممتزجة مع بعضها، مما يؤدى إلى إغناء هذا العلم.

٢ – ما قبل التاريخ المصرى

لقد أصبح ما قبل التاريخ المصرى لحوض وادى النيل منذ اكتشافه ودراسته فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فى المرتبة الثانية من الدراسات المصرية القديمة. ورغم هذا فقد تمت فى النصف الأول من هذا القرن أعمال هامة فى السودان والخارجة والفيوم. ولكن بفضل حملة إنقاذ آثار النوبة، قبل بناء السد العالى وارتفاع المياه فى بحيرة ناصر، استؤنفت هذه الدراسات الميدانية. وتلا ذلك عمليات استطلاع وحفريات فى "بوتانا" والصحراء الشرقية، واستؤنفت أعمال الحفريات فى مصر ذاتها على طول السنوات العشر الأخيرة فى مواقع مثل "هيراكونبوليس"(١) ونقادة(٢) ومرمدة(٣) والمعادى والفيوم وفى الواحة الداخلة، بينما استكملت دراسة مواقع أخرى كثيرة كانت

معروفة من قبل أو تم اكتشافها حديثا . وعلى خط موازٍ، أدت دراسة البيئة وظروف المناخ إلى فهم المراحل المتوالية الرئيسية.

إن أعمال البحث والتنقيب التى قام بها "م. هوفمان M. Hoffman" وفرقته فى "هيراكونبوليس" فى مصر العليا لهى أعمال نموذجية فى هذا الصدد. لقد ساهمت إلى درجة كبيرة فى فهم الانتقال من أسلوب الحياة الذى كان سائدا فى العصر الحجرى الأخير، ومراحل ما قبل التاريخ التى كانت مقدمة وإيذانا بمرحلة التحضر الشاملة فى عصر عشية توحيدها . ونتيجة الدراسات التوضيحية التى قام بها "و. كايزر W. Kaiser" وأعمال الحفريات الحديثة التى قام بها "د. أوكنور D. O'Connor" و"ج. دريير G. Dreyer" فى أبيدوس أصبح بين أيدينا تسجيل وثائقى جديد عن ملوك مصر الأوائل. وفى نفس الوقت، ففى الدلتا وسيناء سلطت الأضواء على مجموع المرحلة التى سبقت بزوغ الدولة الفرعونية وعاصرتها وتلتها، وذلك من خلال طبقات الحفريات المتعددة. ويستطيع المرء أن يتابع من خلال هذه الدراسات القديمة والحديثة الروابط العميقة التى توحد المراحل المسماة مراحل ما قبل التاريخ وتلك المسماة المراحل التاريخية. إنها اللحظة التى عندها يبدأ التعبير المكتوب فى الظهور.

ولكن دراسة المسائل المتعلقة بالعصر الحجرى القديم والوسيط والأخير ليست عديمة الفائدة فى معرفة المراحل اللاحقة

التى تشكلت فيها شيئا فشيئا المعطيات الأساسية الجغرافية والمناخية والبشرية، واستمرت سائدة بعد ذلك فى المراحل اللاحقة خلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة دون تغيير ملحوظ. إن أساليب الحياة المتواصلة التى ميزت هذه المراحل الحضارية الطويلة شكلت تدريجياً مجتمعات أصيلة حافظت عليها مصر كل الحفاظ وخاصة فى المجال الدينى. وحتى المرحلة اليونانية الرومانية تواجهنا مخلفات تمائم بدائية تشكلت على سبيل المثال فى مرحلة العصر الحجرى الحديث. إن كثيرا من الظواهر صعبة التفسير تستمد أصولها من التقاليد السلفية التى تعود إلى هذه العصور التى نجهل عنها الكثير .

وحيث أن علم المصريات يرتكز ارتكازاً شديداً على معرفة اللغة المصرية القديمة، فإن المتخصصين فى الحضارات التى لم تعرف الكتابة هم بوضوح فئة مظلومة، إذ ينظر علماء المصريات – فى فرنسا على الأقل – إلى هذه الفئة من علماء ما قبل التاريخ المتخصصين فى وادى النيل على أنهم علماء ما قبل التاريخ بشكل عام، وينظر إليهم علماء ما قبل التاريخ على أنهم علماء مصريات. وهذا وضع غير مريح، وخاصة فى أوساط تتسم بالآفاق المحدودة جدا حيث تعطى إمكانيات العمل للمتخصصين فى مصر الفرعونية من ناحية أو لعلماء ما قبل التاريخ العاملين فى أوروبا من ناحية أخرى. ومن حسن الحظ فمع أن الوضع لم يتحسن إلا قليلا فى هذه السنوات الأخيرة من عبء القيود المالية

فقد حدث تطور فكرى ملحوظ، إذ تضاعفت الحفريات فى مواقع ما قبل التاريخ، وتمارس الآن فرق علماء الآثار التى تضم تخصصات متعددة بما فيها علم ما قبل التاريخ عملها فى كل مكان تفرضه الظروف الميدانية. ويتحقق تدريجيا الأمل فى أن يندمج بشكل متكامل علماء ما قبل التاريخ مع المجال العام لعلم المصريات .

ولا يبقى سوى أن نمارس تأثيرا على الناس ونرهف حواسهم لهذا الموضوع الهام الخاص بتاريخ وادى النيل. وهذا شىء ممكن يشهد عليه معرض "مصر قبل عصر الأهرامات" الذى نظم فى باريس سنة ١٩٧٣ فى "Le Grand Palais" وقد حقق نجاحا ساحقا. وهناك أعمال مشابهة حديثة جدا وخاصة المعرض الذى نظمه متحف "ماك كيسيك" ومعهد العلوم ومصادر الثروة فى الأرض فى جامعة "كارولينا الجنوبية" سنة ١٩٨٨، والمعرض الذى أقامه متحف "La Vieille Charité" فى مارسيليا سنة ١٩٩٠. لقد قوبلت هذه المبادرات بترحيب وتشجيع. ولكن ما زال من الصعب الغور فى أعماق بعض جوانب الحياة والعقائد المغرقة فى القدم فى هذه المناطق أو تفسيرها لجمهور غير متخصص، ولكن يكفى فى أحيان كثيرة جمال التحف لتثير الفضول لدى مشاهديها. ومن الزيف أن نتخيل أن أعمال الفن فى مرحلة ما قبل التاريخ هى أعمال خرقاء، إن بعضها - الأوانى الحجرية على سبيل

المثال – تكشف عن تحكم وبراعة فى استخدام المادة، مقرونة بنقاء فى الخطوط، نادرا ما نجدها فى أعمال لاحقة .

٣ – مصر فى العصر اليونانى الرومانى

يختفى شيئا فشيئا فى العصر اليونانى الرومانى – الطرف المقابل من تاريخ مصر – تختفى المؤسسات الفرعونية لتحل محلها مؤسسات أخرى، وتكشف هذه المرحلة عن الكثير، رغم أنه من الصعب أحيانا التمييز بين الأشكال المتأخرة للنماذج المصرية الأصيلة والاقتباسات المحلية للنماذج الأجنبية، فالحضارات مثلها مثل الديانات تعيش منذ زمن بعيد جنبا إلى جنب، إن تواجدها جنبا إلى جنب وتغلغل الواحدة منها فى الأخرى لهو موضوع لنمط من الدراسات الأخاذة، تعتبر بداية التداخل والتكامل بين التخصصات المختلفة. فإذا كان مؤرخ ما قبل التاريخ فى حاجة أغلب الأحيان إلى متخصصين فى مراحل أحدث، والعكس صحيح، فمن الممكن أن يكون الباحث فى هذه الحالة مؤرخا فى ما قبل التاريخ وعلى علم بعض الشىء بالمصريات، أو يكون عالم مصريات وفى نفس الوقت على علم بمراحل ما قبل التاريخ. أما بالنسبة لمصر فى عصورها المتأخرة فتتعدد التخصصات بحيث يصبح من الصعب التمكن منها كلها فى نفس الوقت.

ومن الواضح أن هناك على سبيل المثال مدارس بلجيكية وانجليزية وإيطالية تعد تلاميذها أكثر من غيرها على منهج أو

معرفة شمولية لأشكال أنظمة المرحلة وحضاراتها سواء على الصعيد المحلى المصرى أو الصعيد اليونانى والرومانى، وهكذا يتيسر لهم الحصول بطريقة أيسر على وجهة نظر شاملة عن مشاكل هذه العصور. ولا يتبقى سوى تعاون وثيق بين المتخصصين فى الكتابة المصرية القديمة وأوراق البردى واللغة الديموطيقية والأنظمة العامة والديانات وغيرها من التخصصات. إن هذا التعاون الوثيق لا غنى عنه لا لتعدد المجالات المطروحة فحسب بل لتعدد المصادر بدرجة لاتقارن بتعددها فى باقى مراحل التاريخ المصرى، فيما عدا حالات نادرة. ويحظى تاريخ الأديان والبرديات بالنصيب الأكبر من هذه الثروة الوثائقية. ولهذا، فإذا كان واضحا أن كثيرا من الأشياء قد تغيرت بين المراحل المختلفة من التاريخ الفرعونى والمرحلة اليونانية الرومانية، فنحن مضطرون لاستغلال الوثائق والآثار الموجودة التى تفيض بما تفصح عنه بدلا من أن نسأل أنفسنا دون طائل عن وثائق قديمة ولكن غامضة. إن الوثيقة الحديثة لا تغنى عن الوثيقة القديمة ولكنها فى أحيان كثيرة تقتبس منها، بل وأحياناً تؤكدها.

وفى مجال الأدب كما فى مجال المادة الدينية كنا سنصبح أكثر فقرا سوى النسخ المعاصرة للنصوص القديمة المكتوبة. فرواج هذه الكتابات والحرص على صيانتها دون مساس بها وسيادة التقاليد كل هذه عوامل ساعدت على إعادة نسخ هذه الكتابات فى مراحل مختلفة، حتى ولو كانت مصحوبة بأخطاء

متعمدة أو غير متعمدة تتزايد مع توالى النسخ. وفى أغلب الأحيان يتميز المتخصصون فى مصر القديمة فى مرحلتها اليونانية الرومانية عن المتخصصين فى الحضارة اليونانية العاملين فى مصر، فلا تتمشى دائما أبحاث هؤلاء مع أبحاث أولئك. فإذا كان هناك من جانب شواهد غنية تنصب على مصر التى تعيش قرونها، ومن جانب آخر شواهد أخرى تنصب على مصر فى مرحلة تطورها الكامل، ولكن نحو مفهومات تنتمى إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط، فإن كلا الكائنين فى الواقع، مصر الأولى والثانية قد تعايشا، وكانت الارتباطات بينهما أكثر تمسكا مما يطيب للبعض أحيانا أن يتخيله.

وفى النهاية يجب ألا ننسى أنه أصبح فى الإمكان حل طلاسم اللغة المصرية القديمة بفضل اللغة اليونانية، كما استعارت اللغة القبطية - الصورة الأخيرة للغة المصرية - الحروف اليونانية فى كتابتها. وقد كتب الكاهن المصرى مانيتون" تاريخ مصر" باللغة اليونانية، وهو أحد المصادر الرئيسية فى معرفتنا بالتقويم المصرى. لقد ساهم المؤلفون الكلاسيكيون الإغريق والرومان إسهاما ليس بالقليل فى اكتشافنا للحضارة المصرية وخاصة فى الألف سنة الأولى قبل الميلاد. وإذا كانت وثائق مصرية معاصرة للأحداث التى نتحدث عنها تضيف تحديدا دقيقا للوثائق اليونانية والرومانية بل تناقضها، فيبقى الاهتمام الذى أبداه الاغريق

والرومان يعدهم بالعلم والديانة والعادات المصرية شاهدا فريدا لا يمكن أن نتجاهله.

ومنذ الربع الثانى من الألف سنة قبل الميلاد، أجهد المصريون ومحتلو مصر المتعاقبون أنفسهم فى تدوين تراث القرون العابرة. لقد نسخت من جديد نصوص قديمة كثيرة على أوراق البردى أو أعيد نقشها على الأحجار. وتم تطوير كتابات دينية أو علمية أو سحرية لم تترك الدولة القديمة أو الوسطى أو الحديثة سوى إشارات مختصرة عنها، وتمت شروح وتفسيرات لها. وهذا لم يحدث بدون تحويرا أو مسخ فى النص، إذ أعيد تفسير بعض المفردات القديمة وتأثرت الأساطير بتيارات الفكر الجديدة. ولكن عبر هذه التفسيرات الجديدة غير الدقيقة يمكن أن نعثر على آثار الواقع الحقيقى الذى كان غائبا فى غياهب الظلام. فمهما كان حجم الإضافات فإن أهمية المعلومات الجديدة التى تعود إلى المرحلة اليونانية والرومانية هى فى مجالات كثيرة لايمكن مقارنتها بشىء آخر. إن حرماننا من هذه المعلومات يعنى حرماننا من أكثر المصادر التى نملكها غنى.

إن الدراسات المستقلة التى تبحث فى أقاليم أو مقاطعات مصر مثل واضح على ذلك. فبينما لا تعرّفنا الدولة القديمة إلا بأسماء المقاطعات وعواصمها والمبانى الجنائزية الملكية الخاصة، لا تفصح الدولة الوسطى عن المزيد اللهم إلا بالنسبة لمساحة المقاطعات وبيانات موجزة تتعلق بالشعائر، وتصمت الدولة الحديثة

تقريبا عن هذا كله. أما الفترة المتأخرة، فهى على العكس من ذلك، كريمة فى إعطاء تفاصيل عن الزراعة أو الديانة أو دراسة المواقع وأصولها. ومع أنه لا يجوز طبعاً خلط محتوى هذه الملاحظات مع ما كان محتملا وجوده لألف أو لألفى سنة قبل ذلك، إلا إن هذه الملاحظات الجديدة لها مدلولها وإسهامها البالغ.

٤ - الحضارتان القبطية والإسلامية

إذا كانت المواجهة بين مصر التقليدية والحضارتين الإغريقية والرومانية اللتين نمتا هناك نقطة تحول فى تاريخ مصر وفرصة لتجدد ثقافى، فقد أبعدت المرحلة المسيحية وبعدها الإسلامية مصر دون رجعة عن ماضيها الفرعونى. ورغم هذا فما زال كثير من المعطيات اللغوية والأثرية والشعبية حية حتى اليوم فتعاقب تبجيل أماكن إقامة الشعائر الدينية داخل حرم المعابد الفرعونية ثم الكنائس والمساجد كما هو الحال فى الأقصر، فهناك مسجد يحتفل فيه بذكرى شيخ محلى هو أبو الحجاج، وفى مولده السنوى يتكرر سير المواكب الخاصة بإحدى الطقوس الرئيسية التى كانت تنظم من أجل آلهة الثالوث الأمونى فى طيبة فى الدولة الحديثة : مهرجان "أوبيت"، وكانت مواكبه محفورة صورها فى بهو أعمدة توت عنخ آمون، وكانت هذه المواكب تسير من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر حاملة التماثيل الإلهية وسط الحماس الشعبى فى مركبات تحافظ على استمرار هذا التقليد.

ولقد احتفظت الديانة القبطية بالطبع بعناصر كثيرة مستعارة من أفكار وثنية كان المسيحيون الأوائل على احتكاك بها . ويكفى أن نتتبع الانصهار منذ الدولة الوسطى وبشكل خاص الدولة الحديثة الذى تحقق فى مصر بين الشعائر الدينية المحلية والشعائر الدينية التى أدخلها الأجانب إلى مصر وذلك حتى نتفهم مدى الارتباط الميسر بين هذه الديانات ومدى الثراء المتبادل الذى يعم كل هذه الاتجاهات. ولقد تعرضت الطقوس والشعائر الدينية الإغريقية لنفس عملية التمثل فى فترة لاحقة. أما ديانة أنصار يهوى فقد أبدت مقاومة أوضح فى التفاهم مع الديانة المصرية، بينما اتحدت مع شعائر دينية شرقية أخرى قائمة فى حامية "إلفنتين سيين"(٤). ولكن الحواجز لم تكن قاطعة مانعة مما كان يسبب ضيقاً كبيراً للسلطات الدينية المسئولة فى بيت المقدس.

ويحس مسيحيو مصر أنهم ورثة الماضى الفرعونى فى بلادهم، وهذه الدعوى لا يبررها فقط استخدام اللغة القبطية فى ممارسة الطقوس الكنسية ، فقد أوضح S.Sauneron فى كتابه "مدن مصر وأساطيرها" الكثير عن هذا الموضوع. إن قصة القدر المعدنية من سوهاج لهى مثال طريف: وهى تتعلق ببعض الطقوس السحرية القديمة حول إبادة الأعداء على جمر النار أو داخل قدر، نجد فى نصوص ورسومات من معابد إدفو والكرنك نوعاً من رجع الصدى لها، وقد ذكرت هذه الطقوس فى النص

العربى من "السنكسار" وفسرت على أنها طقوس تقديم الأطفال كذبيحة فى المهرجنات الوثنية. لقد وجدت هنا الصورة المسيحية عن مرجل الجحيم رجع صدى غير متوقع.

إن دراسة أسماء المواقع والمفردات اللغوية هى أدوات مفضلة لإبراز بقايا فرعونية فى اللغتين القبطية أو العربية، وليس هناك غنى عنها من أجل التعرف على معالم مواقع قديمة كثيرة وتحديد هويتها، تماما كما هو الحال مع ترجمة جانب هام من المفردات المصرية. ويتم الاستفادة من نصوص القرون الوسطى وروايات الرحالة الأحدث، فهى أيضا بالغة الأهمية فى تزويدنا بالمعلومات عن الآثار القديمة وعن المواقع الأثرية التى تم تدميرها فى فترة حديثة. و يمكن الاستدلال على معابد كثيرة أو جبانات الموتى من خلال هذه الإشارات الموحية بصورة أو أخرى. وتكشف أيضا دراسة المبانى المسيحية أو العربية فى يسر ووضوح عن اعتمادها على ما خلفته المرحلة الفرعونية. وهذا فى حد ذاته تقليد قديم كان الفراعنة أنفسهم أول من بدأوه. إننا نكتشف باستمرار عناصر جديدة تدعو إلى التأمل والتنوع والتكرار الواعد بثراء فكرى فى نقاشنا مع زملاء متخصصين فى مراحل وحضارات تبدو للوهلة الأولى بعيدة جدا عن تخصصاتنا واهتماماتنا، وعند العمل فى أعمال حفريات تختلط فيها الآثار التى تنتمى إلى مراحل متعددة، وعند زيارتنا لمتاحف يخرج محتواها عن تخصصنا ولآثار تعود إلى كل مراحل التاريخ .

٥ - الإثنوجرافيا

لاتكشف تقاليد بلد من البلدان عن مدى عمقها وسيادتها إلا عندما تلمس مظاهر الحياة اليومية. ومصر هى بالتحديد المثال النموذجى على دولة متأثرة بدرجة كبيرة بإطارها الطبيعى والمناخى، خلقت منذ بداية تاريخها الأنماط التى تتلاءم بشكل تام مع احتياجاتها، واحتفظت بهذه الأنماط حتى مرحلة متأخرة. ولم تتغير الزراعة فى وادى النيل حتى قبل بناء سدّىْ أسوان وإدخال الجرارات والسماد الكيماوى. ولم يتعرض بناء بيوت الطين اللبن وأفران الخبز وأفران الفخارين إلا لتغيرات محدودة. واستمرت الاستفادة من النيل كوسيلة رئيسية فى المواصلات زمنا طويلا. ولم تمنع إقامة طرق موازية للنيل أو حول الهضاب الصحراوية حركة الملاحة النيلية ونشاطها التجارى والسياحى.

ولقد كان الريف المصرى كنزا للبيانات المقارنة لكل دراسى الاقتصاد والبيئة السكانية والأوانى الفخارية والأغذية، ناهيك عن العادات والعقليات. ولكن هذا الكنز فى طريقه إلى النضوب السريع فى مصر كما فى السودان، لأسباب سكانية وأسباب تتعلق بوسائل الإنتاج وأساليب الحياة أو لأسباب سياحية. ويتضاءل دور وادى النيل كمتحف حى، كما وصفه أجدادنا، ولم يعد يمثل الانعكاس المباشر للنقوش والتصوير الذى نراه فى مقابر العصور القديمة. ولكن حركة التحديث لم تطُلْ بعد إلى

المناطق المعزولة التى يندر زيارتها، كما أن المصرى يعرف دائما كيف يوائم بين بيئته وتقاليده ومايأتيه من الخارج.

ومازالت الفرصة قائمة لكل من يعرف اللغة العربية لتحقيق دراسات عديدة حول موضوعات مختلفة. ولقد حان الأوان للقيام بها إذا كنا لا نريد أن نفقد هذا المستودع الثقافى الفريد فى بلد مفتوح لكل المؤثرات بالغة التعدد. ويتحمس المصريون والمستعربون وعلماء الآثار الذين لم تعد مصر غريبة عليهم، المقيمون هناك إقامة دائمة لإنتاج حرفى يتعلق أحيانا بعادات فى طهى الطعام، وأحيانا بأنواع من البناء أصيلة الطابع، وأحيانا بقرية من القرى احتفظت بتقاليدها بشكل ملحوظ. ويمكن للوثائق المتعلقة بالأسرة أن تلعب دورا فى استكمال الملاحظات والبيانات والتحقيقات. هذا هو ما فعله على سبيل المثال نسيم حنين، وهو مهندس يعمل فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة، فى قرية قبطية فى صعيد مصر. إن هذا التراث الذى لا يعوض له بكل وضوح فائدة ضخمة بالنسبة لعالم الآثار الذى يسعى إلى استعادة الحياة اليومية التى كان يعيشها أسلافنا، منطلقا من خطة غير كاملة، من مسكن أو مساكن متعددة، ومن أشياء مهجورة مهملة. ولهذا التراث فائدة ضخمة أيضا بالنسبة للمؤرخ الذى يحاول أن يفهم كيف كانت تحل الخلافات فى مجتمع زراعى منطلقا من بعض العقود شبه البالية. ولكن لا يمكن أن ننسى أنه إذا كانت الروح المصرية المحافظة هى شىء ثابت لاحظناه مرات

عديدة على طول تاريخ مصر - وربما فى هذه الملاحظة شىء من المبالغة - فإن المقارنة تبقى دائما مقارنة، ولا يمكن أن تفسر لنا تماما وضعا كان قائما فى طيبة سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد على ضوء وضع آخر تجرى أحداثه فى القرن العشرين فى الدلتا أو فى أى مكان آخر. ولذلك يجب أن نعالج كل هذه التسجيلات والوثائق بنفس القدر من رحابة الصدر ومن الحذر.

إن التراث الشعبى لا يكشف عن نفسه فى الصور التقليدية الملموسة أو المكتوبة فقط، بل أيضا فى التقاليد الشفاهية، التى تغيب عنا عندما نتعرض للمراحل القديمة، رغم أنه يمكن أن نستشفها أحيانا من خلال تيمات أدبية أو صيغ لغوية أو استعارات فقدت عادة كل مغزاها بالنسبة لنا إذا لم يكن هناك أمثال أو شروح تفسرها . ولكن زميلتنا المصرية فايزة هيكل أبدت ملاحظة فى المؤتمر الدولى لعلماء المصريات المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٨٨ مضمونها أن اللغة العربية تحتفظ أحيانا بهذه الصور وهذا التقارب والتوارد الثقافى المميز، وخاصة فى الأمثال والتعبيرات الشعبية التى ترد على ألسنة الشيوخ. وتؤكد د. فايزة هيكل الاهتمام بهذه المفاتيح الأدبية والإسراع فى جمعها قبل أن تختفى مع أصحابها .

٦ - الجغرافيا الطبيعية والبشرية

لقد أشرنا سابقا إلى هيكل البنية الطبيعية لمصر وطابعها الحاسم على اقتصاد البلاد. ولكن لا تعنى هذه الملاحظة العامة أن هذه البنية الطبيعية هى بالحتم ثابتة بلا تغير من مرحلة ما قبل التاريخ حتى أيامنا هذه. فقد حدث بالطبع تغير محدود فى الهضاب المحاذية لوادى النيل أو الصحارى الممتدة فيما وراء ذلك نحو الغرب ونحو الشرق، ولكن فى نفس الوقت تغير المناخ فى هذه المناطق تغيرا ملحوظا مما أدى إلى تحولات جذرية فى البيئة وأجبر الناس على التوائم مع هذه التحولات أو الرحيل حفاظا على حياتهم. أما فيما يتعلق بوادى النيل وحدوده القريبة مثل المصاطب النهرية والتلال وفروع النهر، فقد خضعت للنيل فى حركته وتغيرات مجراه. لقد وجدت الزراعة أرضا ملائمة لتطور ممكن فى مجرى الألف الرابعة قبل الميلاد، وربما كان هذا ممكنا فى الألف الخامسة قبل الميلاد عندما أدى انخفاض منسوب النهر إلى تحرر السهل الغرينى وأصبح ممهدا للزراعة .

وفى مرحلة بداية التاريخ، حدثت تغيرات بالغة ملحوظة فى المناخ. ونستطيع أن نلحظ من خلال النقوش والكلمات وجود مناطق "سافانا" قريبة من الوادى اختفت شيئا فشيئا على حساب الصحارى التى أصبحت تبدأ مباشرة عند حدود الأرض الزراعية. ولم يكن حوض النهر فى نفس مكانه الذى نعرفه. ولهذا كانت التجمعات السكانية ترحل وفقا لتأثير كل هذه العوامل

المختلفة. أما التحولات فى الدلتا فقد كانت جذرية بشكل أكبر، وهذا ما يفسر التغييرات المتعددة فى تتابع العواصم الرئيسية، بعضها يولد فجأة وبعضها يموت فجأة. أما ساحل البحر الأبيض المتوسط، إذا لم يكن قد تعرض لتغير كبير فى مستوى البحر بعد طغيان منسوب المياه فيه حوالى ستة آلاف سنة قبل الميلاد، فهو لم يبق ثابتا بعد ذلك.

ولم نبدأ فى التعرف على هذه الحياة المكثفة فى الريف، بشىء من التحديد المتواصل، إلا منذ خمسة عشر سنة فقط. وقبل ذلك كانت مجرد بعض ملامح مصر الجيولوجية والظروف المائية للنيل هدفا لدراسات عميقة. وليست الدوافع الاقتصادية الحديثة غريبة عن خط تطور هذه الدراسات ومنها مدى الاستفادة من زيادة عائد الأرض واستصلاح الأراضى الجديدة ومشروعات التنقيب عن البترول وغير ذلك. وسهّلت هذه الدراسات فهم الكثير من النشاطات البشرية مثل نشأة مراكز تجمع فى المدن وتفرق المناطق السكانية وأنماط الإنتاج الغذائى. ورغم هذا فهناك الكم الهائل من الدراسات التى يجب علينا الانتهاء منها فى دراسة طبقات الأرض والرواسب والظروف المناخية على سبيل المثال. وعندما بدأنا نستفيد من هذا النمط من الدراسات يصبح بعد ذلك من الصعب أن نمر عليها مر الكرام .

لقد كانت إحصائيات السكان وحركة التجمعات السكانية داخل مصر أو بين المناطق الخارجية التى تختلف فى بعدها عن

مصر موضوع أبحاث متوالية بعضها مبنى على حساب ريع الهكتار، والأخرى على نصوص معاصرة لهذه التحركات فى حالة وجودها وعلى دراسات أنتروبولوچية. إن التقديرات المقترحة عن إحصاءات السكان، حتى لو كان الخطأ فيها محتملا بسبب تراكم كثير من الافتراضات التى أدخلت فى الحساب، إلا أنها لا غنى عنها فى التفكير الجارى الآن. ولكن بسبب غياب نصوص لها دلالتها المميزة بدرجة كافية، فإن تطور علم الآثار فى المدن والحفريات المبرمجة لأماكن دفن الموتى النموذجية هى وحدها القادرة على المساهمة فى تقديم عناصر حاسمة. وليست وسائل استغلال الإنسان للبيئة إلا دراسات محدودة فى هذا الوضع، رغم أننا نملك معطيات غنية ومتنوعة فى هذا المجال .



الفصل الثالث
فروع علم المصريات

بعد تحديد المجال الأساسى لعلم المصريات وحدوده وامتدادته، لا يبقى أمامنا سوى أن نتكشف الفروع المتداخلة فى هذا العلم. وسواء كان العامل فى حقل المصريات أستاذا أو باحثا أو أمين متحف أو موثقا أو محاضرا، فلا بد أن يركز جهوده، بشكل مؤقت أو دائم، على فرع أو فروع مختلفة وفقا لمجال عمله و اهتماماته، إذ أن دراسة حضارة من الحضارات تفترض الاعتماد على تخصصات متعددة تتراوح أهميتها عند التعامل مع ظواهر بالغة التطور أو وثائق تفيض بالمعلومات عن هذه الحضارة .

١ - التاريخ

يزداد هذا النوع غنى عن الفروع الأخرى. وهو أكثر قدما، وقد أعطى لعلم المصريات منذ بدايته قيمته بفضل النصوص التاريخية المحفورة على اللوحات التذكارية أو على جدران المعابد، وهى التى شدت انتباه علماء المصريات الأوائل. إن التاريخ الوقائعى والتقويم الزمنى هما القسمان اللذان كانا فاتحة الأبحاث التاريخية - و هما اليوم لا يزالان يمثلان النسج والبنية اللتين لا غنى عنهما فى كل الدراسات التاريخية، عندما أصبحت

الاهتمامات أكثر دقةً وتنوعاً. إن القدرة على تحديد تاريخ نسبى، أى القدرة على تحديد زمن حدث من الأحداث بالنسبة للاحداث التى سبقته أو رافقته أو تلته، والقدرة على اكتشاف متى تم هذا الحدث، أى فى أية سنة من سنوات حكم الملك المعين، إن هذه القدرة تستلزم كفاءات مختلفة فى مجال الدراسات المتعلقة بأساليب الكتابة وقراءة النصوص القديمة والرسوم المتميزة والمادة الأثرية والأنماط الخزفية...الخ. أما إذا أردنا الوصول إلى تحديد قاطع، فيجب أن نستخدم أساليب تكنيكية خاصة مثل التحديد الزمنى عن طريق كربون ١٤، أو الإضاءة الحرارية أو التقويم القائم على دراسة عمر الأشجار. ولهذا لا بد أن نعرف كيف نضع المعطيات التى وصلت إلينا، رغم ما تنطوى عليه من اتجهات شديدة التضارب، فى إطار الزمن والمكان وعلى أعلى وجه من الدقة.

ويجب علينا إذن أن نكتشف ونستغل كل العناصر المتميزة الحاسمة داخل المصادر الموجودة تحت أيدينا. وليس من الصعب فى مثل هذه الظروف أن ندرك أن الدارس فى علم المصريات لا يمكنه أن يسمى نفسه مؤرخاً بهذه البساطة، فإنها لموضوعات نادرة تلك التى لا تستلزم فحصا دقيقا أو إعادة نظر دقيق فى الوثائق. إن الحركة الدائبة فى هذا الفرع، والمراجع الهامة التى تظهر كل سنة، تشكك فى مسلمات اعتقدنا منذ زمن بعيد فى صحتها. وحتى يتم التقدم، لا بد أن يصل المؤرخون إلى

استخلاصات ويقيموا افتراضات منطلقين من الوثائق الجاهزة فى اللحظة التى يعملون فيها . ولكن مهما كانت استخلاصاتهم فهى فى حاجة إلى إجراء تعديلات بين فترة وأخرى بالاستفادة من المادة التى يطرحها بشكل ملحوظ نشر آثار حديثة .

أما تاريخ الأديان فقد بدأ مع علم المصريات واتخذ أشكالا متباينة وفقا للمراحل المختلفة، إذ نزع إلى التطورية فى بعض الفترات إلى مقارنة الديانات فى فترات أخرى. ويتعرض تاريخ الأديان لنظريات نشأة الكون، كما يتعرض للطقوس والديانات الشعبية والسحر. لقد اكتسب بمرور الوقت دراية متزايدة بالفروق المحلية والتباين فى عوامل التأثير المتبادلة. ويدخل فى علم التاريخ دراسة هياكل الفكر التى نستطيع أن نفهم مدلولها، ووسائل التعبير عن الطقوس والمواكب ذات الطابع السياسى والعناصر الأيديولوجية والدور الاقتصادى الذى لعبته المعابد. وتشغل الأساطير والتماثيل والطقوس والكهنوت بال مؤرخى الأديان فى عمومهم. إن قدس الأقداس فى المعبد، بناؤه، والمواد التى يصنع منها، والأقسام التى يشتمل عليها ومداخله هى أيضا مادة لدراسات كثيرة.

ولكن المؤرخ الحديث يعرف أنه حتى ولو كان العالم القدسى يشكل ركنا فى حد ذاته، فهو فى نفس الوقت فى قلب الحياة الاقتصادية والسياسية فى بلد مثل مصر ومجتمعها. لقد دخلت هذه الجوانب التاريخية شيئا فشيئا فى الاعتبار حسب دورها.

ولقد استفاد التاريخ الاقتصادى من خلال تطور ملحوظ ساهم فيه بشكل خاص علماء القانون، ولكن بشكل خاص بفضل ظهور عدد متزايد من النصوص الوثائقية باللغات المصرية الهيروغليفية، وعلى نحو أوسع بالهيراطيقية والديموطيقية والآرامية واليونانية والقبطية .أما تاريخ المؤسسات والنظم وتاريخ مصر السياسى، فيلزم الكثير حتى تتحدد معالمه. وتعود أقدم محاولة فى هذا الصدد إلى "جاك بيرين" Jacques Pirenne فى الفترة من سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٣٥، أى قبل اكتشاف مواد تاريخية بالغة الأهمية، مما جعل محاولة "جاك بيرين" محل تساؤل.

إن عملية إدخال مجموع المظاهر المؤسستية والأحداث السياسية الداخلية والخارجية فى الحساب، حكما بعد حكم، أو أسرة ملكية بعد أخرى، حسب الحالة المعينة، والتعبير عن إرادة قامت على تناسق بين عناصر مختلفة، إن هذه العملية فى حد ذاتها ظاهرة حديثة فى علم المصريات. إنها تستلزم معرفة كافية بالمعطيات المترابطة مرحلة بعد مرحلة حتى تصبح منهجا يقوم على التأنى والتقييم الدقيق عند إعداد وتنفيذ خطط محددة. وفى مجال السياسة الخارجية نستطيع أن نقول إن إرادة الملوك أنفسهم هى التى حددت فى أغلب الأحيان المحافظة على شواهد معينة فى السياسة الخارجية.

إن تاريخ المجتمع المصرى وتطوره الفكرى هو بالكاد فى مرحلة التخطيط.. ويتم بناء تاريخ المجتمع المصرى بالانطلاق -

كالعادة فى مثل هذا المجال - من بعض أمثلة تتسم بغنى وثائقى تفوق فى قيمتها وثائق أخرى، لابد من القيام بأبحاث على مدى طويل قبل أن ندخل فى عملية إعادة بناء بعض صفحات من حياة المصريين وفقا لما نصل إليه من مادة تتعلق بالمراحل أو البيئات المعينة. أما تاريخ العقليات فهو فى مرحلة جنينية: هناك دراسات نادرة تدور حول نقاط محددة بدأت فى الظهور تكشف عن أنماط فى التفكير والسلوك تنطبق على سكان وادى النيل. ولكن التقدم حتى فى هذا المجال مشروط بفهمنا للملامح والآثار التى تكشف عن هذه الجوانب .

أما تاريخ الفن فهو على العكس من ذلك قد حظى باهتمام المتخصصين والهواة من زمن بعيد، ويتطور فى نفس الوقت الذى تتطور فيه فروع التاريخ المصرى الأخرى، ويستفيد دون توقف من وسائل التكنيك الحديثة، و يقدم معلومات دقيقة و بصورة خاصة فى مجال التقويم الزمنى. ولكن لتاريخ الفن مجاله الخاص المميز فى مجال الأبحاث، لأنه يتميز بأهدافه الخاصة، مهما كان ارتباطه الوثيق بعلم الآثار، وهو الارتباط الذى يجعل البعض يخلط بينهما .

٢ - علم الآثار

قد يتغير تعريف علم الآثار مع الزمن، وهكذا يبدو لنا اليوم كتاب "جاك فانديه" Jacques Vandier المسمى موجز الآثار

المصرية" و كأنه يدور أكثر ما يكون حول تاريخ الفن، ولا يرتبط بعلم الآثار سوى بخيوط واهنة. لقد تغير مفهومنا عما نسميه بالآثار ومفهومنا عن الحفريات منذ عشرين أو ثلاثين سنة. إن نظرتنا إلى صورة أو لوحة من الحفر البارز أو تمثال لم تتغير إلا قليلا،، ولكن منهجنا فى التعامل مع الواقع الميدانى ازداد نضجا وغنى.

إن لم يكن علم الآثار غاية فى حد ذاته، فهو حرفة مستقلة تماما عن الحرف الأخرى لا يمكن ممارستها بشكل جيد إلا بالتفرغ له. إن من السهل على علماء الآثار أن ينتقلوا من بلد إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، على عكس علماء المصريات المتخصصون فى دراسة النصوص الذين يصعب عليهم الانتقال إلى علم الآثار. إن علم الآثار ليس مجرد تكنيك واحد بل مجموع أساليب تكنيكية خاصة بكل موقع، ومعرفة عميقة بالأمور المألوفة المطروقة، وبالقدرة على وضع تلك الأساليب فى خدمة هذه المعرفة. و يمثل علم الآثار منجما لا ينضب من المعلومات حول عدد لا بأس به من الموضوعات. ولكن المخاطر التى تتحكم فى صيانة المواقع ومحتوياتها تقود كثيرا القائم بأعمال الحفريات إلى طرق تختلف عن الطرق التى ربما يكون قد خطط لها. وهكذا يصبح من اللازم أن يتعلم شيئا جديدا من كل النتائج التى أمكن التوصل إليها ومواءمتها وفقا للظروف وتحقيقا لأكبر عائد من الفائدة .

وليست الحفريات إلا عملية اختيار رئيسية من بين العمليات المتداخلة التى نحددها حسب الواقع الفعلى. وهناك دوافع كثيرة وراء اختيار مكان للتنقيب عن الآثار. ففى حالة تحديد منطقة نجهل عنها الكثير ربما من الأفضل أن نقوم أولا بعملية استطلاع حتى مرحلة معينة، وهكذا يصبح من الأسهل أن نحدد المبنى أو المبانى الأفضل حفظا أو تميزا. ومن الطبيعى أن نبحث عن العلاقة التى يمكن أن توجد بين هذا الموقع والمواقع والمناطق الأخرى المجاورة، ولكن بعد أن نكون قد استنفذنا موارد الموقع لسنوات طويلة. إن هذه العمليات التنقيبية التى تعرف باسم عمليات المسح مورست فى يسر عند التنقيب عن آثار تمت إلى المراحل السابقة للتاريخ والأسرات التى لم تترك آثارا مميزة. ولكن أمكن تطوير عمليات المسح هذه فى السنوات العشر الأخيرة للاستفادة منها فى التنقيب عن آثار تنتمى إلى ما يسمى بالمراحل التاريخية فى الصحراء الشرقية وبالتحديد فى الواحات الداخلة وفى الدلتا، وقد أمكن تحقيق هذه العمليات بفضل الأعمال التى سبق القيام بها فى النوبة أو خارج وادى النيل.

وفى نفس الوقت، تعتمد أساليب المعالجة المستخدمة فى عمليات التنقيب أو الاستطلاع على وجهة نظر المسئول عن العمل وعلى شخصيته وعلى الأرض التى سيتم التنقيب فيها. وإذا كانت هناك قواعد مطبقة تتسم بتشدد علمى لا خلاف عليه فهى تخص نوعية التسجيل الوثائقى ومدى شموله أكثر مما تقتضى

استخدام نوع معين من التكنيك. وفى كل الحالات فالمنقّب أو عالم الآثار هو صاحب الحق الوحيد فى تسجيل الحد الأقصى من الملاحظات فى اللحظة التى يجرى فيها العمل بالرسم أو بالتصوير أو الوصف الدقيق... إلخ. وفى حالة الحفر يحدث تدمير الأماكن المحيطة بالموقع الذى تم فيه الحفر نتيجة استخراج الآثار المدفونة. أما فى حالة التنقيب فيلعب تحديد المكان الذى يبدأ فيه التنقيب دورا هاما . وتتعرض مواقع الحفريات، رغم الحراسة، إلى عوامل التخريب سواء من فعل البشر أو الظروف الجوية، من موسم إلى آخر .

وقد يدعو تباين هذه العمليات التنقيبية إلى الشك فى كونها تنتمى إلى نفس التخصص العلمى.فما هى الملامح المشتركة مثلا بين اكتشاف مقبرة جنائزية ونزع الركام عن معبد غارق فى الرمال أو مدفون تحت الركام فى حى من الأحياء، أو التنقيب عن موقع سكانى، أو مأوى ينتمى إلى العصر الحجرى الحديث؟. إن تنوع الملابسات والظروف يؤدى إلى تنوع القسمات الخاصة. وتتوقف عناصر المخاطرة والأفضليات فى العمل على الأهمية النسبية للعوامل الواقعية. إن عالم الآثار مدفوع دائما إلى الاختيار لأنه لا يملك حياة أبدية أو اعتمادات مالية لا تنضب. وسواء كان المكان الذى يعمل فيه مهددا أم لا فهو ملتزم بتحقيق عائد معين لا لشىء إلا ليحقق لونا من التماسك والترابط فى متابعة أفكاره. إن تجنيد معاونين له عاملين فى تخصصات مماثلة

هى أيضاً مهمة دقيقة حيث لا ينبغى أن يخطىء الإنسان فى القيام بها.

وهناك بعض الأمثلة التى توضح ما نقول. تقوم بعثة آثار جامعة جنيف بحفريات فى "كرما" فى السودان منذ حوالى ثلاثة عشر سنة لتمسيط اللثام عن آثار عاصمة من أكبر العواصم الأفريقية وأكثرها أهمية. لقد تمت عمليات متنوعة فى المدينة، بدأت بتمشيط مساحات واسعة مما كشف عن وجود أحياء سكانية كبيرة ومبان دينية ومدنية متعددة، وتحصينات حول "الدفوفة" وهى مكان عال كان قد تم التعرف عليه قبل ذلك، ولكن أسىء تحديد معالمها، فالمنطقة المحيطة لم تكن معروفة فى ذلك الوقت. ولهذا فمع استمرار عمليات التمشيط فى تقديم قطاعات جديدة تنتمى إلى مراحل مختلفة، برزت الحاجة إلى معالجة بعض المسائل مثل التحديد الزمنى النسبى للمبانى التى كشفت عنها الحفريات، ومحاولة تحديد معالم هذه المنطقة السكانية. لقد شجعت الأهمية الخاصة لهذا المجمع من المبانى والكثافة المحدودة للآثار المتبقية من المراحل المختلفة المنقّب على ألا يدمّر المستويات العليا للوصول إلى المستويات الدنيا المحجوبة. إن دراسة الطبقات الجيلوجية فى منطقة قريبة من "الدفوفة" محمية من التآكل بفضل مبنى الدفوفة، تقدم معلومات تكميلية. وفى النهاية قدمت دراسة التحصينات الدليل على وجود خنادق محفورة حول المدينة، وكان يتم تغيير أماكن هذه الخنادق كلما اتسعت المدينة.

ومن خلال هذه الدراسة الدقيقة جدا، وبعد عمليات تنظيف عديدة للمكان، أمكن الكشف عن أماكن تغطية هذه الخنادق بالتراب الذى كان بمثابة الجسور. وأمكن أيضا الكشف عن حفر كانت تغرز فيها أوتاد أكواخ السكان المحليين التى كانت تشغل بعض الأحياء.

وتطرح حفريات مواقع سكانية فى الدلتا مشاكل من نوع مختلف. إن حفريات الضبعة "أفاريس القديمة"، وهو امتياز يقوم به معهد الآثار النمسوى، تمتد الآن جزئيا على مدى العديد من القرى الحديثة وجزئيا تحت المناطق الزراعية. والمسألة هنا ليست صيانة الأبنية المنزوعة وإعادة بنائها لعرضها على الناس. إن العوامل الجوية، فى المحل الأول، تبذل كل جهدها لتزيل من الوجود بأسرع ما يكون كل ما يخرج من الأرض، وتتحد الأمطار والرياح بطريقة فعالة فى هذا العمل التدميرى. علاوة على أن المرحلة الزمنية التى تغطيها هذه الحفريات قصيرة بمقارنتها بحفريات "كرما" (٥) التى تغطى قيامها حتى زوالها. إن تواجد أبنية فوق بعضها ومستوى الصيانة العالى يدفع المنقب إلى استبعاد المستويات التى قد تم الكشف عنها للوصول بعد ذلك إلى المستويات الأدنى. كما يعقّد توالى السكان ذوى الأصول المختلفة الذين عاشوا هناك، المشاكل المطروحة. ويؤدى البحث عن تحديد شخصية كل مجموعة من هذه المجموعات إلى تجميع عدد هائل من المعلومات عن جنوب غرب آسيا. لكن تنوع الأساليب

التكنيكية الضرورى لا يمنع من وجود مناهج عديدة مشتركة. إن دراسة الأوانى الخزفية والمادة الأثرية المأخوذة من المقابر هى المصدر الرئيسى الذى يرضى كلا من الاتجاهين. ولكن النتائج تختلف فى دلالتها وإقناعها، فتحليل الطينة التى تصنع منها المواد الفخارية التى عثر عليها فى أماكن مختلفة من وادى النيل لا تكشف عن اختلاف ذى بال، وذلك بخلاف تحليل طينة المواد الفخارية التى عثر عليها فى مصر السفلى وقبرص وسوريا وفلسطين. كما أن الدراسة المقارنة لقدس الاقداس فى المعابد تمثل مادة تختلف من مكان إلى آخر كما لو كان كل نمط يمثل طابعا فريدا متميزا عن الآخر .

وفى مقابل هذا المنهج فى التنقيب عن الاثار، بدأت بعثة الآثار الفرنسية فى "بوباستيون" منذ عشر سنوات فى الكشف عن مقابر تنتمى إلى الدولة الحديثة أصابها التدمير من جراء سقوط صخرة فى سقارة. وأمكن الوصول إلى بعض نصوص نادرة صعب قراءتها أثارت الانتباه إلى هذا المشروع، وأمكن تحديد شخصيات أصحاب هذه القبور ومن بينهم وزير للملك اخناتون . إن حالة الدمار التى كانت عليها هذه المقابر أثارت حماس علماء الآثار، بدلا من أن تثير يأسهم، للاستمرار فى العمل. فلقد تجمعت فى هذه المقابر كميات هائلة من الأنقاض حمتها من عبث اللصوص منذ الزمن القديم، وذلك بفضل الأروقة الكثيرة التى تخترقها عند بناء سراديب القطط المحنطة للإلهة "باستيت" فى

المرحلة المتأخرة. إن انهيار القطع الكبيرة من الصخور العالية وتسرب المياه المستخدمة حديثا ساهمت فى جعل المكان كريها صعب التغلغل فيه. إن إقامة الدعامات ومحاولة تجميع الأجزاء المهدمة من الآثار ووضعها فى مكانها الطبيعى لهى الأعمال الأثرية المميزة التى تؤدى إلى تقدم الأبحاث هناك. وفى النهاية أمكن الوصول إلى الحجرة الجنائزية للوزير. وبالرغم من هشاشة الأثاث الذى هرسته الأنقاض الضاغطة المتراكمة وتعرضه للعطن بفضل الرطوبة إلا أنه تقريبا ما زال سليما لم تمسسه يد، وفى حاجة إلى تثبيت ثم ترميم. وهنا تلعب وسائل التكنيك الحديث دورها الحاسم(*).

ويمكن أن تستفيد عمليات التنقيب والاستكشاف من وسائل التكنيك التى كانت حكراً فيما مضى لأعمال التجسس، مثل التصوير من الجو والتصوير بواسطة الأقمار الصناعية. إنها لا تقدم بالطبع نفس الخدمات، فالتصوير من الجو يعطى فى أغلب الأحيان الكثير من العناصر المعمارية أو غيرها المدفونة أو غير المرئية أو الغريبة فوق الأرض، إذا تم حسب تعليمات القائم بأعمال التنقيب حسب الارتفاع المطلوب وفى ظروف جوية ملائمة إلى أقصى حد. ويسمح أيضا التصوير من الجو بتكوين صورة

---

*) انظر فيما يخص هذا الاكتشاف كتاب آلان زيفى «كشف فى سقارة» ترجمة إلى العربية عماد عدلى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣ (الناشر).

عن مناطق يصعب التغلغل فيها أو خطرة مثل المناطق الملغمة. ومع ذلك من الصعب أن يتم التصوير من الجو داخل مناطق تحت الإشراف العسكرى الذى تفرضه ظروف الأمن. أما التصوير بالأقمار الصناعية فهو عامل مساعد له أهمية فى دراسة عوامل التضاريس. ويقدم نوعية من التصوير لا يمكن أن نجد بديلا لها على المستوى المحلى. وتوجد وسائل آخرى فى جس وسبر أغوار الأرض، ولكن الأجهزة غالية الثمن جدا، وتستخدم بشكل أساسى فى عمليات الجس عن حقول البترول: أخذ عينات من التربة وفحصها. وتستطيع هذه الأجهزة أن تعطى معلومات خصوصا عن وجود آثار مطمورة على مستويات مختلفة العمق والمرحلة الزمنية التى تنتمى إليها هذه الآثار. وفى النهاية هناك أجهزة مغنطيسية كهربائية مختلفة، وأجهزة مصغرة لقياس الجاذبية، تسمح أن تحدد المكان، بل والشكل العام والأبعاد للآثار التى ليس لدينا الوقت الكافى لإزالة الركام عنها، أو لأننا على العكس نريد أن نبدأ بالوصول إليها. ولكن يجب أن نضيف أن كل هذا ممكن فى حالة اختلاف مدى المقاومة أو التركيب الجزئى للأشياء المحيطة، مع عدم وجود عامل تشويش يمكن أن يزيف النتائج التى نصل اليها. ففى "نرجسا" على سبيل المثال، أمكن إزاحة الرمال عن مساحة كبيرة من مبان تنتمى إلى نهاية الدولة الوسطى، ولكن لم يسمح ارتفاع منسوب المياه فى بحيرة ناصر بإعطاء الوقت الكافى لتحديد معالمها. ومع ذلك

فبفضل استخدام "ألبرت هس" لجهاز مقياس المغنطيسية عن طريق ذرات كهربائية إيجابية، أمكن تحديد مكانها ورسمها بيانيا. وأخيرا فى سقارة، نجحت «شركة التنقيب فى طبيعة الأرض الفرنسية» ومصلحة الكهرباء الفرنسية فى الجمع بين العديد من وسائل التكنيك الحديث فى تحديد مكان هرمى ملكتين ينتميان المجموعة الجنائزية التى بناها الملك "بيبى الاول" وبهذا وفّرت هاتان الشركتان على المنقبين شهورا من العمل إن لم تكن سنوات من التحسس والتلمس اللذين لا جدوى منهما .

٣ - العلوم الملحقة بالتاريخ وعلم الآثار

لا ينحصر علم الآثار فى مجرد التنقيب عن المبانى والتحف والآثار بل يمتد إلى معالجة هذه المكتشفات، ودراستها ونشر الأعمال عنها. ولكن تنوع المادة التى يتم استخراجها خلال الحفر يفرض تدخل كفاءات متعددة : مهندسين معماريين، متخصصين فى الأوانى الفخارية، علماء أجناس ومسكوكات... الخ. وليس تواجد المهندسين المعماريين ضروريا إلا فى الحالات التى تكون فيها المبانى الأثرية على وجه الأرض، أما فى الحالات الأخرى فعالم الآثار أكثر دراية بما يمكن عمله عن المهندس المعمارى، وهذا بخلاف تقليد ظل يُمارس زمنا طويلا فى أعمال التنقيب الفرنسية، بينما كانت تمارس تقاليد أخرى فى أماكن أخرى. أما التخصص فى الأوانى الفخارية فهو محمل بالفيض من المواد

الفخارية المتوالية حتى يصل إلى مرحلة التصنيف القاطعة. ولهذا فمن الواجب عليه أن يطلب فى أحيان كثيرة مساعدة المتخصصين وخاصة فيما يتعلق بالأوانى الفخارية المستوردة، كما أنه بدأ يستخدم برامج كمبيوتر حتى يستطيع أن يتابع أعمال التنقيب المتواكب.

أما عالم الأجناس البشرية فيصبح عضوا لا غنى عنه فى فريق التنقيب عندما يدور العمل حول جبانات الموتى أو مناطق فيها فيها مقابر من مراحل مختلفة. ويصبح القيام باستقصاء دقيق عنصرا متمما للبيانات الأثرية وذلك عندما تؤدى أعمال التنقيب بشكل منظم إلى الوصول إلى عدد كبير من الجثث. كما أنه أساس لعمل دراسة عن السكان المحليين، إذ يقدم العناصر الوحيدة التى نستطيع الاعتماد عليها إذا أردنا الوصول إلى فكرة دقيقة عن إحصاء سكانى لتلك المراحل. وقد أعطت أعمال مشابهة فى أوروبا نتائج مشجعة جدا . ويتم تطبيقها الآن بنجاح فى وادى النيل. وتستخدم أساليب خاصة على الأجسام المحنطة وخاصة التصوير الإشعاعى الذى يسمح بالمحافظة عليها دون أن يصيبها ضرر، ويجمع الحد الأقصى من المعلومات فى آن واحد. ولنذكر مرة أخرى العمل الفذ الذى قام به "متحف الإنسان" بباريس على مومياء الفرعون رمسيس الثانى.

وهناك حاجة إلى متخصص فى المسكوكات أو فى أنواع أخرى للأشياء، ومن النصوص، وهذا وفقا لطبيعة العمل. ولا

تواجـهنا مشكلة النقود بشكل عام إلا على مسـتوى مـرحلة البطالمة والرومـان، ولكن تندر المواقع التى لم تُحتل فى هذه الفترة المتأخرة. ولا بد من الاستعانة بخـبير فى المسكوكات طالما أمكن العثور على سلسلة هامة من المسكوكات تبرر هذا الإجراء. أما التماثيل الصغيرة من "التيراكوتا"(٦) والأسلحة والأوانى وبصمات الأختام والخرز والتمـائم والأوزان ...الخ فيقوم واحد من أعضـاء فريق التنقيب بتسجيلها وتوثيقها. وتثير هذه الأشياء الاهتمام طالما يتم دراسـتها فى شـمول، ولكنها فى نفس الوقت تقدم المعلومات المفيدة عن ماهية الأماكن التى استخرجت منها وعن طبيعة الناس الذين اسـتـخـدمـوها. أمـا النصـوص من كل الأنواع – سـواء مكتـوبة على عناصـر مـعـمـارية أو نصـبـا تذكـارية أو تماثيل أو "اوستراكا"(٧) أو أوراق بردى – فـهى بالطبع ذات أهمـية قـصـوى من أجل فـهم هذه المكتشـفـات وتفسـيرها، وسنعـود إلى الحـديث عنها فيما بعد.

وتضيف علوم البيئة بعدا جديدا لمشروعات التنقيب عن الآثار بفضل مجهودات "كارل و.بوتزر Karl W. Butzer" منذ عشرين سنة تقريبا. وتتـباين هذه العلوم فى تأثيـرها من مـوقع إلى آخـر تبعا لمقتضيات العمل وتبعا لمدى سهولة الحصول على خبراء فى هذا المجـال. ويتـيـح لنا علم تضـاريس الكرة الأرضـيـة بوضع التـحـركـات السكانيـة فى الإطار الطبـيـعى المعـاصـر لعـمليـات الاستـقـرار السكانى التى هى مـحل دراسـتنا، هذا الإطار الذى

تشكل وتعدل وفقا لعوامل التغييرات فى بنية القشرة الأرضية وعوامل الرسوب والرياح وغيرها. ويساهم علم الترسيب وعلم التربة فى تقديم تحديدات إضافية تسمح بإعادة بناء التغيرات المتوالية لأنواع التربة ومجارى المياه واتجاهات الشواطىء.

وتسمح التحولات فى نظام النيل والمناخ فى وادى النيل والصحارى المجاورة، كما رأينا، بفهم تنقلات السكان والتغيرات فى وسائل الحياة و وسائل الإنتاج وخاصة فى مراحل ما قبل التاريخ والمراحل اللاحقة. ويتقدم علم الحفريات الحيوانية والنباتية على نفس المستوى، ويقدم فكرة عن النباتات والحيوانات التى عرفها سكان المناطق موضوع دراستنا. ونستطيع أن نصل إلى العادات الغذائية لهؤلاء السكان، ليس هذا فحسب بل نستطيع أن نصل إلى الموارد المحددة التى كانت تعتمد الحرف المختلفة عليها. وفى الإمكان الوصول إلى مواد الاحتراق ومواد إزالة بقع الدسم عند عمل الأوانى الفخارية، وأنواع الأخشاب المستخدمة فى عمل الأثاث والأعشاب المستخدمة فى عمل السلال.

لقد لعبت هذه الدراسات دورا حاسما فيما يتعلق بمراحل العصر الحجرى القديم والحديث، وهى العصور الفقيرة فى الآثار المعمارية والرسوم والتصوير وهى خالية بالطبع من النقوش والكتابة. أما فى الحفريات التى تتم فى مناطق أكثر حداثة، فيتجه الاهتمام الأول بشكل طبيعى إلى المادة الأثرية المتوفرة أكثر من غيرها: الجدران والفخار والرحى وغيرها، وإلى الآثار الواضحة:

عناصر معمارية، نقوش وتماثيل صغيرة الخ. كما أن العينات النباتية تحتوى على حبوب لقاح ونباتات احترقت فى الأفران، وهى من العادات التى كانت لا تمارس إلا قليلا فى مصر، وهذا بخلاف العينات النباتية التى كانت محفوظة فى المقابر على أحسن وجه. وأدت بعض الدراسات التى تمت على النباتات والحيوانات فى مناطق سكانية مثل دير المدينة أو العمارنة إلى نتائج بالغة الأهمية. ولقد قام "فيكتور لوريه Victor Loret" فى بداية هذا القرن بدراسات تعرف فيها على النباتات المصورة فى الرسوم المختلفة وعلى أسمائها المصرية. أما اليوم فتتجه الأبحاث إلى تحليل العينات التى نعثر عليها فى موقع محدد وفى فترة زمنية محددة، فترة الدولة القديمة مثلا، كما حدث أخيرا فى كوم «الحصن».

٤ – التكنيك فى خدمة الأبحاث

تتطلب الأساليب التقليدية والحديثة على حد سواء، حتى تكون مفيدة ناجحة، وسائل تكنيكية تتلاءم مع كل موقف، فهى أحيانا بسيطة رخيصة وأحيانا معقدة تعتمد على أجهزة خاصة. إن الدور المتعاظم لوسائل التكنيك فى هذه السنوات الأخيرة يجعلنا نجمعها جميعا تحت اسم عام "وسائل القياس فى التنقيب عن الآثار" وهى تسمية كانت تدل أساساً على أساليب كيميائية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطبيعية فى تحديد معالم مواد علم الآثار والزمن الذى تنتمى إليها.

إن عمل الرسوم المختلفة فى ميدان علم الآثار مثل الخرائط والقطاعات الجيولوجية والمستويات ورسم الأشياء المختلفة مثل الأوانى الفخارية لهو واحد من الفنون التكنيكية الأساسية، ولا يختلف عن مثيله فى زمن سابق إلا فى الاعتماد على قواعد منظمة صارمة عامة. لا بد أن يواكب بالقطع المعدل العام لأعمال الحفريات حتى لا يضطر القائم بها إلى التوقف عن التنقيب. إن الأبنية التى يتم انتزاعها تتعرض للضرر بسبب تقلبات الجو فى الشمال، أو يتم نقلها من مكانها حتى يتسنى للعاملين فى التنقيب الاستمرار فى أعمالهم. وتتقوض القطاعات الجيولوجية بشكل سريع وتتشقق الأكياس المتينة المليئة بقطع الفخار أو بقايا الآنية القديمة مع الزمن وتختلط محتوياتها. ويصبح من الصعب الوصول إلى الأشياء المسجلة والمغلق عليها فى مخازن هيئة الآثار المصرية بعد انتهاء الموسم الذى أودعت فيه. وعلاوة على ذلك تتعطل دراسة الأشياء التى تم استخراجها بسبب التأخير فى التسجيل.

ويلعب التصوير دورا مساعدا للرسم، فيوضح التصوير الفوتوغرافى حجم الأشياء وألوانها وعلاقة الأشياء التى عثر عليها بالإطار العام الذى وجدت فيه، بينما يوضح الرسم عناصر التركيب والشكل والتفاصيل. ولا بد أن يتم تنفيذ التصوير

والرسم على أساس قطع الكتاب الذى سيصدر عن الحفريات. وفى الواقع يتمشى مقياس الرسم مع الموضوع ولكنه لا بد أن يتمشى أيضا مع أبعاد الخريطة التى ستطبع. إن افتقاد معلومات هامة فى النص المطبوع نظرا لعدم القدرة على تسجيلها، يُعتبر شيئا باعثا على الضيق، كما أن الخرائط الضخمة جدا لا يمكن الاستفادة منها عند النشر، وتفشل كل محاولة لتصغيرها. وفى نفس الوقت فلا غنى من أن نعرف لحظة التقاط صورة ما، الهدف من التقاطها - هل ستستخدم فى أعمال الحفريات أم النشر العلمى أو فى مؤتمر أو فى كتاب عن الفن - وما الذى ستشير إليه هذه الصورة أو النص الذى ستلقى عليه الضوء. إن التصوير المسامى الضوئى الذى يجمع بين التسجيل التصويرى والتسجيل الأركيولوجى عملية مكلفة يمكن استخداهما على وجه خاص عندما تكون المساحات التى سيغطيها التصوير هائلة. إن الفيديو فى طريقه لأن يصبح شكلا جديدا فى تقديم دراسات تسجيلية على العيان. ولكن علماء الآثار ما زالت لديهم بعض المشكلات فى التحكم المتقن بهذه الوسيلة على مستوى الرسم والتصوير، ولكنها ليست إلا مسألة وقت.

وهناك تخصص آخر أصبح لا غنى عنه فى المواقع ذات المساحة بعض الشيء وهو الطبوغرافيا. إن تحديد ارتفاع فى مستوى الأرض أو تقوس فى المستوى العام قبل القيام بالعمل لهو ذو فائدة عظيمة حتى نفهم المنظور العام والموقع النسبى

للمناطق الأركيولوجية الرئيسية. وفى حالة صغر المساحة يمكن أن يقوم بهذا العمل مهندس أو عالم آثار متعود على استخدام المزولة ومقياس الأبعاد، وهو جهاز متفرع من المزولة، وهو، حسب ما يدل عليه اسمه: لا يعطى فقط مقاييس الزوايا ولكن تقدير المسافات بالأجهزة الالكترونية. وتحدد الطبوغرافيا أيضا المربعات مهيئة بذلك نقاط الاستدلال اللازمة لتحديد المرتفعات، وتحدد أيضا المستوى المطلق وعلى أساسه سيتم حساب كل المستويات المأخوذة فى الموقع. ولايمكن أن تستغنى عمليات الاستطلاع الأولى عن هذه الخدمات عند التحديد السريع للطبقات الأركيولوجية التى أمكن الاستدلال عليها، وعند تحديد المستويات التى تقع داخلها الآثار المرئية والقطاعات التى أمكن التعرف عليها.

وتحدد نوعية التسجيل وتنظيمه نوعية النشر. لا بد أن تكون الوثائق كاملة أو على الأقل تتكامل على فترات منتظمة، ولكن لا بد أن تكون قبل كل شىء واضحة على متناول أعضاء الفريق الذين لا بد أن يكونوا على دراية بعمل الآخرين فى نفس هذا المجال، لأن تبادل الأفكار يؤدى إلى إغناء العمل. ولا بد أن يكونوا قادرين على الحصول بيسر على البيانات والمعلومات التى هم فى حاجة إليها. وهنا أيضا يلعب الكمبيوتر دورا متزايد الأهمية، فمراكز الحفريات تطفح كل سنة بكم هائل من المعلومات والبيانات التى تحتاج إلى التدوين، ولابد أن تكون الأجهزة

المستخدمة فى تجميع المعلومات والبيانات، وخاصة الأجهزة التى يمكن الاستفادة منها على أرض واقع التنقيب خفيفة الحمل ولا تتأثر بالأتربة والغبار السائد هناك. ويشترط أيضا رخص الثمن، ولكن هذه الأجهزة وفقا لهذه المواصفات لا تعطى إلا جزءا محدودا من الخدمات التى كنا نأمل فى تحقيقها بفضل تقدم علم الكمبيوتر.

أما القائم بأعمال الترميم فيدخل فى العمل فى لحظات مختلفة قبل البدء بالحفريات وبعدها . وتشترط هيئة الآثار المصرية عن حق وجود متخصص فى أعمال الترميم مع كل فريق، إلا أن هناك بعثات استكشافية لاتملك أن تضحى إلا بإمكانيات محدودة باستثناء بعض الحالات الخاصة. إن دور المرمم فى المرحلة الأولى هو التأكد من استخراج التحف شديدة التعرض للتهشم من الأرض ونقلها إلى معمل الهيئة المسئولة. وبعد ذلك حسب حالة هذه الأشياء المستخرجة، يقوم بعمليات إحكام وتثبيت وتنظيف حتى يصبح الشكل والخطوط الخارجية والنقوش مرئية، وحتى تسهل دراسة هذا الأثر. ويمكن أن تعالج هذه الآثار وفقا لطرق أكثر تطورا فى المعمل الدائم المجهز على نحو أفضل، هذا إذا تطلب الأمر ذلك. ومعظم الأشياء المعروضة فى المتاحف حظيت بمثل هذه العناية بعد استخراجها .

ويأخذ القائم بأعمال الترميم العينات اللازمة لعمل تحاليل وفحوص مجهرية عليها ، وتتم بعض هذه الفحوص والتحاليل

داخل المعامل فى مصر أو فى أى مكان آخر. وقد يتم فحص العدد الكبير من هذه العينات على أيدى المتخصصين أنفسهم طالما تسمح الظروف بذلك. وفى حالة غيابهم يقوم عضو من أعضاء الفريق بأخذ العينة، وهذا يعنى التعاون الدقيق بين الأعضاء جميعا. إن التحاليل الشائعة إلى أقصى حد الآن هى تحاليل كربون ١٤، التى تسمح، فى حالة القيام بعدد كافٍ من هذه التحاليل، باقتراح تحديدات زمنية قاطعة للحضارات أو المراحل التى تفتقد التحديد القاطع. وهناك تحليل العجائن التى تصنع منها الأوانى الفخارية وتحاليل أنواع التربة: الرمل والطين والطمى والصخور المختلفة. وما زالت الثقة فى نتائج تحاليل كربون ١٤ محدودة بعكس التحاليل الأخرى، وذلك بسبب تعدد العوامل التى يمكن أن تحرّف فى النتائج. ولهذا فمن المهم القيام بعدد كثير من تحاليل كربون ١٤ حتى نستطيع أن نتأكد من هذه النتائج. ويمكن أن يؤدى تحديد زمنى منعزل بواسطة كربون ١٤ إلى خطأ يفقدنا الثقة فى عالم الآثار المسئول عنه. وفى هذه الحالة من الأفضل استخدام الإضاءة الحرارية. ومن سوء الحظ أن التحديد الزمنى القائم على دراسة النباتات، وهو يستخدم بنجاح فى البلاد الغنية بالغابات، لا يمكن الاستفادة منه إلا قليلا فى مصر. ولكن كل هذه الوسائل التكنيكية تتقدم بسرعة، وتقدم خدمات متزايدة طالما أن العاملين فى المعامل يأتون إلى أماكن

التنقيب ويحددون بأنفسهم مع هيئة العاملين بالتنقيب المشاكل التى يتعين حلها .

٥ - النصوص

من الواضح أن فقه اللغة يحتل مكان الصدارة بين فروع علم المصريات، إذ يتضمن الهيروغليفية وكل أشكال الكتابة الأخرى التى استخدمها المصرى القديم وفقا للظروف والمراحل المختلفة. إن دراسة النصوص المكتوبة والبرديات هما الفرعان الأكثر امتدادا فى فقه اللغة لأنهما يرتبطان مباشرة بالوثائق، ولهما فى أغلب الأحيان الأفضلية بسبب مساهمتهما الهامة. وإذا كان علم الآثار وكل العلوم المساعدة تحتل المكانة الأولى فى تقديم العديد من الدراسات الهامة، فإن العمل المبذول فى النصوص كتحقيق نص أصلى أو تقديم نسخة أكثر اكتمالا عن نص معروف من قبل أو إعادة دراسة نص كان قد نشر من قبل على نحو غير سليم، كل هذه الأعمال يمكن أن تساهم فى حسم مشكلة قديمة أو تدفعنا إلى إعادة النظر فى تفسيرات اعتبرناها ثابتة لا رجعة فيها، أو تقدم دلائل تسمح بتحديد زمنى مؤكد. ويحدث أيضا أن تحتوى النصوص التى نعثر عليها على فجوات أو أخطاء أو غموض، ولكن معطيات النصوص عموما، أكثر من أية معطيات أخرى، تسهل التعرف على الموضوع محل البحث.

إن معرفتنا بأشكال الكتابة على الحجر أو البرديات تفيدنا فى دراسة الوثائق المنشورة وغير المنشورة التى تم اكتشافها منذ زمن بعيد، كما تفيدنا فى دراسة الوثائق التى تستخرج من باطن الأرض. وتنصّب أشكال الكتابة الهيروغليفية على الأحجار والتصوير على الجدران والخشب والمعادن... الخ. وتتبع هذه الدراسة قواعد محددة مهما كان أسلوب النشر المختار : نسخة باليد أو صورة فوتوغرافية أو صورة من الأصل. وليس لهذه الأشكال الكتابية نفس الوظيفة أو نفس التصنيف فى كل الحضارات، فهى تصاحب فى مصر أغلب الرسوم، تعلق عليها أو تتم مدلولها، وتعطى حياة ومغزى لكثير من الآثار بحيث يصعب الفصل بينهما. ولهذا لابد أن يتأملها المرء فى الإطار الذى تظهر فيه. ولاتتم دراسة النقوش المكتوبة عندما ننوى نشر أو إعادة نشر أثر مكتوب فحسب، بل فى كل مرة نريد الاستفادة من واحد منها فى دراسة أو توضيح. ويحدث أننا لا نستطيع أن نحصل على الأثر ذاته، ربما لأنه ليس قريب المنال أو لأنه اختفى. ولهذا من اللازم الحصول على صور فوتوغرافية دقيقة، وفى حالة اختفاء الأثر، فيجب البحث عن نسخ قديمة، ربما كان قد تم عملها فيما مضى. ولكن لا بد من القيام بعمل مباشر على قدر الإمكان إذا كانت الوثيقة المعينة تحتل مكانة محورية فى البحث .

وليس هناك فى الحقيقة نص "سهل" مهما كان عاديا، إذ تتضمن النصوص الأخاذة إلى أقصى حد، فى أحيان كثيرة

عيوباً فى الأجزاء الأكثر دلالة، كما أن أكثر النصوص أصالة هى فى الغالب أقلها حفظاً. ويجب أيضا أن نستغل كل الوسائل الممكنة لحل المشاكل الطارئة وذلك حسب أحسن الظروف. وعندما لا نصل إلى تحديد معالم آثار رمز من الرموز أو مجموعة من الرموز فى لحظة النسخ، فمن المفيد أن نأخذ بصمة، سواء بالطبع بحروف بارزة أو الاستعانة بعصارة بعض النباتات وفقا لحالة الأثر. وإذا كان النقش المصور ممسوحا، فيمكن الاستفادة من بعض وسائل الإضاءة الشديدة، الأشعة فوق البنفسجية أو الأشعة دون الحمراء، مما يجعله أكثر وضوحا. وتشكل النسخة والصورة طبق الأصل والصورة الفوتوغرافية قاعدة ثابتة للتسجيل بعد ذلك. ولكن يجب البدأ أولا بالأعمال المتعلقة بالنقوش وجعلها فى صورة ممكنة تسمح بأخذ صور أو نسخ منها، وذلك بعد الانتهاء من الفحوص الأولية للأثر المكتشف. أما إذا كان النص الذى سيتم نسخة طويلا فمن الحكمة عمل مراجعة أو مراجعات على النسخة، ومن الأفضل أن يقوم بالعمل اثنان لا واحدا، وأن تتم إعادة القراءة بالمناوبة. إن تحقيق ونشر نص من النصوص لا فائدة له إن لم يكن موثوقا فى صحته وفى دقته.

ولنستعيد الآن بعض الحالات الصعبة. إن بوابة "تيبر"[8] فى "ميدامود" هى عبارة عن "بيلون" أمامى أقيم أمام المعبد البطليموسى فى هذه المدينة القريبة من طيبة. وعندما حصل المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة على هذا الامتياز

سنة ١٩٢٥، كان هذا الأثر قد انهار منذ أكثر من قرن وأصاب قاعدة دعاماته التدمير بشكل جزئى بسبب حريق، ومن المحتمل أن هذا الحريق يعود إلى زمن قديم، كما أصاب ملح البارود وجذور أشجار النخيل القريبة. أما الكتل التى تشكل الدعامات العليا وتلك التى تشكل الحاجز الأعلى من البوابة، فقد كانت مطروحة مهشمة فى صورة أو أخرى وفى اضطراب شديد. ومن هنا استلزم نشر المناظر والنقوش المكتوبة البدء أولا بإزالة الأنقاض وترتيب هذه الكتل المحفوظة ثم تصويرها وتثبيتها بطريق تؤدى إلى تشكيل شبيه بتجميع أجزاء متناثرة من صورة لتكوّن منها فى النهاية الصورة الكاملة. وقامت هذه العملية على استغلال إمكانيات التشكيل التصويرى والنصوص الموازية والخصائص المعمارية التى يتضمنها كل كتلة. وبعدها تم عمل نسخة للنصوص الموجودة على الكتل الحجرية كتلة فكتلة، وتحسين هذه النسخة عن طريق نسخة أخرى منظرا بعد منظر ثم مقارنتها ببوابات أخرى أمامية موجودة فى المنطقة. وهناك حالة أخرى استغرقت جهدا كبيرا، فهناك فى معبد "أوبيت" فى الجنوب من مجموعة معابد الكرنك، حجرات سفلى صغرى تحوى صورا ونقوشا يصعب رؤيتها، كانت ملونة فيما مضى باللون الأسود، ولكن بفضل استخدام الإضاءة فوق البنفسجية أمكن رؤية هذه الصور والنقوش. وفى منطقة طيبة، لم نتمكن من تصوير معبد "القلعة" وهو مبنى من حجر جيرى صدفى إلا ليلا

بواسطة إضاءة ملائمة تخفف من العيوب التى لا حصر لها فى الأحجار وتبرز التصوير البارز.

أما علم البرديات فالمقصود به البرديات اليونانية وحدها، ولأسباب واضحة ترتبط بالتقويم الزمنى، إذ تجمع مؤتمرات البرديات ما بين متخصصين فى البرديات اليونانية والديموطيقية، هذا رغم أن وثائق البردى الأولى كانت مكتوبة بحروف هيراطيقية، وهى أقدم من وثائق البردى اليونانية بألفى سنة. وسواء كانت المادة المستخدمة هى ورق البردى أو لوحا من الطين اللبن أو من الخشب أو شقفة من الفخار أو لوحا تذكاريا أو جدارا أو حاجزا صخريا، فإن فك طلاسم هذه الكتابة ونشر هذه النصوص الهيراطيقية تتشابه إلى درجة كبيرة. وتفرض هذه الكتابة السريعة التى تطورت من مرحلة إلى أخرى ومن نوعية من الوثائق إلى نوعية أخرى على عالم المصريات معرفة جيدة بمفردات اللغة المصرية القديمة، وبأشكال الرموز المختلفة حتى يمكن التعرف على الكلمات حتى ولو كان جزء من الكلمة ممسوحا. ولا يختلف النص عندما يكتب بحروف هيروغليفية عن مثيله النص الهيراطيقى إلا فى بعض تفاصيل خاصة لا تمثل أهمية. وتفرض هذه المرحلة الوسطى التى تمثل تفسيرا من جانب محقق النص أن يقدم صورة فوتوغرافية دقيقة عن النص الأصلى تسمح للقارىء أن يكوّن لنفسه رأيه الخاص إذا أراد ذلك .

إن صور نصوص أوراق البردى التى كانت شائعة فى بداية هذا القرن تقتصر الآن على "الاوستراكا" واللوحات والألواح التذكارية و "الجرافيتى"[٩]. إن فرد لفائف أوراق البردى مسألة أكثر تعقيدا بكثير عن النوعيات الأخرى. وإذا كانت الوثيقة كاملة لا نقص فيها، وهذا شيء نادر، يحدث كثيرا أن لا تكون فى حالة جيدة. وإذا تم العثور عليها أثناء الحفريات على صورة أجزاء متناثرة فيحسن تجميعها مهما كانت هذه الأجزاء قطعا صغيرة. ويتم تصنيف الوثائق بفضل التعرف على المحتوى وسمات خط الكاتب. و يستلزم النسخ الداخلى لأوراق البردى دراسة تفصيلية للنص وفحصا لخيوط هذا النسخ. أما لفائف ورق البردى الكاملة فتأتينا عادة من القبور. لقد ظهرت هذه اللفائف إلى حيز الوجود بأعداد كبيرة قبل بداية الحفريات المنظمة، وكان يحدث بالفعل أن تقسم هذه اللفات إلى أجزاء مختلفة لسهولة التصرف فيها بعد تجزئتها وتوزيعها أحيانا فى أماكن كثيرة. وكانت الأوراق البردية تستخدم فى أغلب الأحيان فى الكتابة عليها مرة ثانية وكان يتم غسلها بين الاستخدام الأول والثانى، ولذلك يحدث أن النص الأول يمكن رؤيته تحت النص الثانى أو يمكن أن يكون محشورا فى الفراغات المتروكة بعد كتابة النص الأول، ويمكن أن نتتبع فقرات من نص لاينتمى إلى النص الأخير. ولذلك على المحقق أن ينشر رسماً بيانياً يبين مواقع كل النصوص المثبتة على الوثيقة.

وقد استخدمت الديموطيقية السريعة والهيراطيقية غير العادية[١٠] وهى الصورة المقابلة لها فى جنوب مصر حتى نهاية المرحلة "السائيتية"[١١] ، وهما يجسدان مرحلة مختلفة للغة المصرية لها سماتها المميزة. إنهما يبتعدان عن النموذج الهيروغليفى فى كتابة الكلمات، ومن هنا يندر نقل هذه النصوص إلى الهيروغليفية، فقد حل محل الحروف الهيروغليفية استخدام حروف جديدة تحتفظ بالقيم الصوتية للحروف القديمة. إن الأساليب المستخدمة فى كتابة هاتين اللغتين بعيدة تماما عن الأساليب التى يستخدمها علماء المصريات مما يؤدى إلى زيادة الشقة القائمة بين النمطين. إن المسجل من النصوص الديموطيقية ولم يتم بعد نشره لهو كثير بحيث أن الباحثين البارزين الذين يتجهون إلى هذا التخصص لايقابلهم إلا حيرة الاختيار، ويفضلون بالطبع العمل فى ورق البردى الأكثر إثارة للاهتمام وأكثر مدلولا بدلا من العمل فى "الأوستراكا". وليست مشاكل تكدس مادة هائلة فى هذا المجال هى أخطر المشاكل.

٦ - الكتابة واللغة

لا تقتصر دراسة النصوص كما هو واضح على إعادة نشرها أو فك طلاسمها، فيمكن قراءة كثير من هذه النصوص بيسر كما نقرأ النصوص اليونانية واللاتينية، ولكن نصوصاً أخرى تتطلب أبحاثا قد تتراوح طولا أو قصرا قبل أن تكشف عن

كل مـا تحـويه. وترجع المصاعب إلى أسـبـاب تتـعلق بالقـراءة أو مـعنى المفـردات أو القـواعـد النحـوية. إن الحـروف سـواء كـانت هيروغليفية أو هيراطيقية تخضع لتـعديلات أساسـية وذلك من مرحلة إلى أخرى، ولا تخضع أشكالها وهيئتها للتغير من مرحلة زمنية إلى أخرى فحسب بل من منطقة إلى أخرى، وأكثر من هذا من مـرسم إلى آخـر، ومن مـدرسـة إلى أخـرى أو من يد إلى أخـرى. ويكشف كل ملمح صـغـيـر عن هدف أو تقليـد. إن هـناك جداول خطية تتضمن الحروف المختلفة وتصنفها وفقاً لمجموعات الوثائق الكبرى، تبين القسمات والخاصيات التى تتخذها هذه الحروف المتضمنة فى هذه الجداول. إن هذه الجداول التى أخذت منذ فترة طويلة وضعا مستقرا بشكل ممنهج بالنسبة للنصوص الهيراطيقية، نادرة جدا فيما يتعلق بالحروف الهيروغليفية. إن الدراسـات التى تدور حـول هذه الحـروف الهـيـروغليـفـيـة اهتـمت بصفة خاصة بتحديد معالم الرموز الغامضة، ولكن "هـ. ج. فيشر H. G. Fischer" أوضح شيئا فشيئا الفائدة التى يمكن أن نحـصل عليـهـا عند فـحـصنا الدقـيق والممنهج للرمـوز المصـورة، ولمكانها فى النقوش المكتوبة وفى الوثائق. وقد استطاع "فيشر" أن يشحذ همم تلاميذه على الاستمرار فى هذا المضمار .

وبعد الرمز تأتى الكلمة. إن الدراسات المنصبة على المفردات هى الأسـاس الحـقـيقى لفـهمنا للغـة المصرية. وتسـتـغل هذه الدراسات كل الوسائل والدلائل الهادية مثل التعرف على رموز

الكلمات والرموز الدلالية فى آخر الكلمات، والبحث فى الأصول المشتركة مع اللغات الأخرى والاستعارات الخاصة بمرحلة محددة، والمقارنات التى تعتمد على صور الكتابة المختلفة إلخ. وحتى نصل إلى فهم نص من النصوص وتفسير ثابت مدعم له يعوزنا أن نجمع نصوصا موازية مما يحقق فائدة كبيرة مثل اعتمادنا على نصوص مكتوبة بلغتين. ولكن الاشتقاقات التى وصلنا إليها منطلقين من عبارات مختلفة فى اللغة المصرية وخاصة فى القبطية، أو من خلال المقارنة مع لغات أخرى من المجموعة السامية هى الأكثر انتشارا. وقد تتعرض هذه الأعمال لنقاط محددة تفرضها ظروف الاكتشافات الحديثة أو تتعرض لموضوعات معينة، ومن حين إلى آخر يتم تجميعها فى صورة مصنفات أو قواميس.

ويلعب علم النحو دورا أساسيا فى كل التحولات التى طرأت على اللغة المصرية، ويتراوح الإحساس به وفقا للمراحل المختلفة. ولقد تعرض على مجرى ثلاثة آلاف سنة من تطوره، مثله مثل الرموز والمفردات، لكثير من التغييرات حيث يمكن القول إن المصرى الذى عاش فى الدولة القديمة لم يكن ليفهم شيئا من كلام مصرى ينتمى إلى الدولة الحديثة أو المرحلة البطليموسية. وتحت تأثير ثقل العوامل اللغوية المتعددة الداخلية والخارجية فقد طرأت على اللغة المصرية تعديلات جزئية تلقائية، وتعديلات تحت تأثير الإصلاحات المخططة. لقد اضطر علماء النحو الأوائل إلى

أن يتعرفوا على العوامل الأساسية المحركة للغة المصرية فى العصر الوسيط، الذى يمثل المرحلة الكلاسيكية، ثم تقديمها بصورة واضحة تربوية، كما هو واضح فى كتاب القواعد الذى كتبه "ا.هـ. جاردنر A. H. Gardiner". وقد أدى التقدم الذى قام على أكتاف علماء المصريات فى دراسة نصوص المراحل المختلفة إلى نشر أعمال متخصصة فى اللغة المعاصرة لكل مرحلة من المراحل. واليوم فقد أدى تقدم الدراسات اللغوية وتطور النشر العلمى للنصوص أيضا إلى مولد أعمال لا تسعى فحسب إلى تأكيد قواعد الصرف والنحو فى إطار محدد من الزمان والمكان، للوصول إلى فهم دقيق قدر الإمكان للغة المصرية، بل تسعى أيضا إلى تحليل بنية اللغة فى حد ذاتها. إن كل شكل من أشكال الفعل وكل نظام للنفى يمكن أن يصبح هدفا لدراسات عميقة تصبح أحيانا أقرب إلى نظريات شكلية متكلفة عن كونها نتاج ملاحظات مؤكدة. غير أن هذا الافتتان المتعاظم بالنحو المصرى يؤدى إلى تقدم معارفنا بخطوات عملاقة، غير أن استنباطات معينة ما زالت بعيدة عن الروح الجدية. وهناك جوانب أخرى فى اللغة المصرية تشد انتباه المتخصصين مثل علم الصوتيات و الأوزان الشعرية. ولكن الأشكال المختلفة للأدب ليست آخر ما يثير اهتمام علماء اللغة سواء كانت دينية، جنائزية، سحرية، تاريخية، روائية أو شعرية، وهى تمثل أوجه نشاط باللغة السمو، وتشكل حصادا هائلا لم يتم بعد نشره على النحو

الكامل. ويمكن أن نحاول التعرف على موضوعات تنتقل من نص إلى آخر، وأن نحدد معالم التطورات السياسية، وأن نبحث فى تأثير نمط أدبى على اخر. ولكننا بشكل خاص نعيد تركيب الحكايات جملة بعد جملة حسب الأجزاء المنزوعة والتى كان التلاميذ الذين يعدون أنفسهم ليصبحوا كتبة فى المستقبل يتدربون على نسخها دون كلل، ونقتطف إيماءة بعد أخرى وإشارة بعد إشارة من بقايا أساطير لا نعرفها إلا مبتورة، ونتتبع التنوع فى التأملات عن الأخلاق والأعراف من حكيم إلى آخر.

الفصل الرابع
وسائل البحث

لا معنى لعلم مثل علم المصريات إذا لم تعط الأولوية بصورة دائمة لأعمال البحث. إن كل المهام الأخرى كالتعليم وإعداد المعارض والمؤتمرات ونشر المعرفة فى صورة مبسطة...الخ، كلها مهام ثانوية وسريعا ما يتضاءل مضمونها فى غياب تقدم البحث. إن الدولة التى تمارس دورا فى مجال الدراسات المصرية ثم تتجاهل هذه الحقيقة البديهية، تصبح فى وقت قصير معزولة عن البلدان الأخرى. ومهما كانت المساعدات العامة أو الخاصة التى تقدمها هذه الدول فإن من واجب علماء المصريات تذكيرها بأهمية الدور الذى يجب أت تلعبه فى هذا المجال. تختلف أساليب تطبيق هذه المهمة الحيوية من مدرسة إلى أخرى ولكنها تتقارب بدرجة أو أخرى مهما اختلفت المسميات التى تتخذها.

١ - مراكز الأبحاث

يوما بعد يوم يصبح من الصعب بل من غير المعقول أن يعيش الباحث معزولا. بالطبع هناك كثير من الباحثين يعيشون لأسباب متعددة فى معزل عن معاهد المصريات المتخصصة، ولكن هناك وسائل من شأنها أن تمكنهم من العمل بصورة جماعية. فرغم عزلتهم، هناك ما يدفعهم كل يوم إلى أن يرتبطوا بالآخرين فى

أعمال معينة وأن يبحثوا عن وسائل مالية وإنسانية لتحقيق مشروعاتهم الخاصة وتقديم خدماتهم كمتخصصين فى مناقشة الرسائل الجامعية... الخ. وبالإضافة إلى ذلك تفضل الهيئات الممولة تقديم المعونات لمشروعات الأبحاث الجماعية عنها للمشروعات الفردية. وحتى فيما يتعلق بمعدل السرعة فإن عمل المجموعة أكثر عائدا فى مجالات كثيرة. إن تعاون الكفاءات من مجالات مختلفة يصبح أكثر إلحاحا يوما بعد يوم بدرجة توافر هذه الكفاءات. والنظرة السريعة التى ألقيناها على علم المصريات وتخصصاته قد أوضح لنا أهمية الاستعانة بكفاءات مختلفة فى كل مركز للأبحاث.

إن مركز الأبحاث هو أولا الوحدة المحددة للباحثين القائمين بالتدريس أو غير القائمين، المحترفين والهواة، الدارسين على كل المستويات، والذين يحاولون أن يضعوا فى التطبيق برامج متناسقة. ولكن هذا لايعنى أن كل أعضاء الفريق يعملون فى برنامج واحد، ولا يعنى أيضا أن كل العمل يتم بأسلوب جماعى، بل يعنى أن الدراسات التى يقوم بها هؤلاء الباحثين تتركز فى موضوعات محددة خاصة بالفريق ثم تغنى بعضها البعض وفقاً لمشروع وضع أساسه المشاركون أنفسهم. إن اتجاهات البحث الخاصة بكل مجموعة لا تلبث أن تتبين للجميع فينجذب إليها دارسون ومساعدون آخرون لهم اهتمامات علمية شبيهة أو مكملة لهذه الجهود. ولكن المعمل أو المعهد ليس مجرد مكان تجمع

وتبادل رأى. إنها أماكن عمل يومى، تحاول حسب الوسائل المتوفرة أن تقدم للمترددين عليها الأدوات التى هم فى حاجة إليها .

والمكتبة بلا شك أول هذه الوسائل، مكتبة ثابتة الدعائم تحتوى على مادة تتعلق بالموضوعات المفضلة للعمل الجماعى، وتستقبل بشكل منتظم قدر الإمكان المطبوعات الحديثة حول هذه الموضوعات. وفى ماعدا بعض حالات نادرة أصبح الادعاء بمتابعة كل الكتب والمجلات التى تصدر أو الإلمام بكل شىء مطبوع لونا من الطموح لا يستطيع إلا عدد محدود من المكتبات فى العالم كله أن يلتزم بتحقيقه. إن أهمية وجود مثل هذه المكتبات والمحافظة على استمرار وجودها فى المستقبل لابد أن تبقى مسألة ماثلة أمام أعيننا دائما . ومع ذلك فلا بد أن يبدأ تفكيرنا فى إقامة مكتبة خاصة بمعمل الأبحاث على نحو متواضع حتى يمكن أن يتحقق المشروع. ولا بد أن يكون موقعها الجغرافى بالنسبة للمكتبات بالغة التكامل عاملا حاسما فى سياسة الشراء. وهناك معيار آخر يحدده الجمهور المتردد على المكتبة. لا بد أن نراعى تزويد المكتبة بالمراجع المألوفة مثل كتب النحو والقواميس والكتب الموجزة والأعمال حول موضوعات الأبحاث التى يعمل فيها هذا الفريق أو ذاك . وبما أن الحصول الدائم على الوثائق نفسها مسألة حيوية فى البحث، فاقتناء مطبوعات عن أعمال

الحفريات والآثار والنصوص شيء لا يمكن أن نهمل فيه وإلا تعرض العمل للخطر.

وهناك وسائل متعددة لإمكانية الحصول على الكتب الغير موجودة في مكتبة مركز الأبحاث الذي نعمل به، كالاستعارة من مكتبات أخرى، الحصول على أفلام مسجلة عليها النصوص أو الدراسات المطلوبة، تصوير أجزاء من النصوص، رحلات إلى مدينة فيها مكتبة أهم، بين الحين والآخر، أو شراء بعض الكتب الخاصة بصورة استثنائية. وقد يكون من غير الممكن تقريبا في الوقت الحاضر التفكير في تأسيس مكتبة جديدة في المصريات، إن لم تعتمد على مجموعة متكونة سابقاً كنقطة انطلاق، سواء كانت مساهمة من جامعة أو أفراد. ولكن من الممكن بالطبع التغلب على هذه العقبات على شرط الاستحواذ على وسائل كافية. إنها لمدن أسعدها الحظ تلك التي وهبت مكتبات متعددة في علم المصريات مثل باريس، ستراسبورج، لندن والقاهرة، لأن عددا متزايدا من الباحثين والدارسين يستفيدون من ثرواتها .

إن المزايا المادية والفكرية لمراكز الأبحاث متعددة بالطبع. إن أغلبها مجهزة بالكمبيوتر وأغلب علماء المصريات لديهم كمبيوترهم. إن المشاركة في مهام لها الطابع الجماعي أو الإشراف على أعمال مفيدة بشكل مباشر بالنسبة لبرامج في مرحلة التنفيذ تستلزم إندماجاً أكبر في فريق العاملين، الاشتراك في عمليات ميدانية، الحصول على بعثات، البحث عن إمكانيات

مـالية تمنح بصـورة فـردية لمشـروع من المشـروعـات، والنشـر السريع للنتائج التى أمكن الوصـول إليها، ولا سيما عندما يكون مـعمل الأبحاث يصدر مـجلة أو سلسلة من الدراسات العلمـية. ويتضمن الوضع كثيرا من عوامل عدم الاستقرار منظورا إليها من وجهة نظر مسئولين عليهم أن يصارعوا دوما من أجل تجميع اعـتمـادات مـحـدودة جدا، هـى أقل بكثـير من احـتـياجات الموقف، ويحـاولون على وجه الخـصـوص التـوفـير حـتى لا يدفـعـون أجورا لباحثين جدد يحلون محل الأعداد المتزايدة من الباحثين المتغيبين الذين يقـومـون بأعـمـال إدارية وفنية، ويقـومـون دون مقـابل بعـمل أشـخاص عديدين.

٢ - الرصيد الوثائقى

لم تؤد عمليات التسجيل والتوثيق المتراكمة موسما بعد موسم عن طريق البـعثـات المتعددة المتخـصـصـة فى النصـوص أو الآثار التى تعمل فى مصر إلى خطة ممنهجة للنشر، سواء لأن أعضاء البـعثـات مشـغولون جدا أو أنهم تبددوا فـيمـا بعد أو أن مـرض أحـدهـم أو توفى فتـعطل المشـروع. ولكن حتـى إذا نشـرت النتـائج العلمـية فـيبـقى فى مـعظم الأحـيان صـور ورسـوم ومـلاحظات لم تنشـر، ومـن الممكن الاسـتـفـادة منهـا فى تقـديم بعض الإجـابات وعنـاصـر فى المقـارنة لعلمـاء آثار آخـرين. ولذلك تحـتـفـظ عـادة المعـاهد ومـراكز البـحـوث التى أشـرفت على هذه الأبـحـاث بالمادة

والسجلات الموثقة حتى يتم فهرسة المواد بالغة الغنى فيها ونشرها فى دوائر المراجع التحليلية المتخصصة فى نشر البيانات عن المؤلفات الحديثة، وهى إلى درجة كبيرة دوريات متاحة للجميع.

ويبدأ أغلب علماء المصريات أول حياتهم العلمية بكل أنماط الدراسات التى قد تتوقف بعد وقت قصير، ربما لما تتطلبه من وقت وجهد كثير. وينشر بعضهم الكثير من الأعمال، وينشر البعض الآخر القليل، ولكنهم يجمعون المراجع ويحتفظون بالوثائق التى تنتمى إلى مرحلة معينة أو نوعية من الآثار المحددة. أما الذين يقومون بالتدريس فيستخدمون كمية هائلة من المعلومات فى التحضير لمحاضراتهم سنة بعد سنة. هناك مثلاً أرشيفات خاصة تجمع صوراً فوتوغرافية للتحف التى يتم حصرها فى أماكن مختلفة مثل قاعات المزادات أو داخل محلات بيع التحف القديمة أو المجموعات الخاصة أو داخل متاحف صغيرة لا تملك شيئا آخر يتعلق بمصر القديمة. وهناك أرشيفات خاصة أخرى عبارة عن كتابة ونسخ عشرات من أوراق البردى التى لم تنشر بعد. إن الكثير من العلماء أصحاب مثل هذه الأرشيفات أو أراملهم يقدمونها كهبات إلى معهد من المعاهد بعد موتهم.

إن الاستفادة من الوثائق غير الكاملة شيء صعب يطرح مشاكل عملية كثيرة منها ما يتعلق بأخلاقيات مهنة النشر وحدودها. وليست قلة الوقت دائما هى السبب الوحيد فى عدم

القيام بالنشر. إنها لمسألة حساسة أن يتخذ المرء قرارات فى شئون شخص آخر، خاصة ولو كان هذا الآخر عالم مصريات بارزاً. إن مثل هذه المهام المقدسة تفترض قدرا من الكفاءة والإجلال والتفانى من جانب الذين يقومون بها. وعلى العكس من ذلك قد يحدث أن يستفيد من هذه الفرصة باحثون لا يتسمون بالأمانة الكافية عندما يدرسون كتابات أستاذ توفاه الله، فيستغلون نتائج حصلوا عليها بلا عناء. ولهذا يجب على مراكز الأبحاث التى تقوم بالإشراف على وثائق غير منشورة أن تكون متيقظة تماما فيما يتعلق بالأفراد الذين تستعين بهم فى أعمال الاستشارة، وعليها أن تحمى هوية مؤلفى النصوص، وأيضا حق البعثات فى استغلال المادة التى جمعتها، ذلك تحسباً لأى تصرف تعسفى.

ولكن مراكز التوثيق لا تشغل نفسها بأعمال لم تتحق بعد فحسب، بل يتم تأسيس كثير من هذه المراكز بفضل الرغبة فى الاقتراح على المتخصصين وعلى كل الأشخاص المهتمين بشكل جاد بموضوع من الموضوعات الاستفادة من كل ما لديها من المعطيات المتاحة. قد يتعلق الموضوع بكل أنواع التسجيل من صور ونقوش ونصوص ومراجع...الخ. وتجمع بعض هذه المراكز بين الصور، ونسخ منها، التى توضح حالة أثر من الآثار فى وقت محدد وتزداد أهميتها إذا كان هذا الأثر قد تعرض لتغيرات معينة أو اختفى تماما. وتقدم بعض هذه المراكز أجهزة خاصة

بالعمل لتخصص من التخصصات، حيث لا تتوافر على نطاق واسع. وهذا النوع من المراكز لا يزال نادراً لأنها تحتاج إلى متخصصين يعملون وقتا كاملا. ويلعب علم الكمبيوتر دورا هاما لأنه يسهل لمراكز التوثيق أن تقدم المادة العلمية فى أحدث صورها .

٣ – دوائر المراجع والموسوعات العلمية والقواميس

تتمثل هذه المؤلفات ذات الاهتمام الجماعى حتى الوقت الحاضر فى كتابات يصعب أن تحتوى آخر كلمة فى الموضوعات المثارة ويصعب الرجوع إليها . فإما البيليوغرافيا تمثل مرحلة قديمة فى البحث بكل ما فيه من النقاط المنسية، والأخطاء التى يعوضها عرضا بعض الإضافات أو بيانات الأخطاء المطبعية التى ظهرت سواء فى طبعات حديثة أو فى أماكن أخرى. وإما تنشر البيليوغرافيا سنوياً، فيضطر القارىء إلى التنقيب فى أعداد كثيرة من الأجزاء المختلفة قبل أن يجد ضالته. وقد حل الكمبيوتر كلتا المشكلتين فى آن معاً، إذ يسمح بتقديم البيانات فى أحدث صورة لها، وتصحيحها إذا لزم الأمر.

وقد تمت فى فترة مبكرة جدا محاولات فى تقديم تعليقات ببلوغرافية بعضها فى صورة تبويب حسب الموضوعات المختلفة والبعض الآخر لم يراع فيها ذلك. إن دائرة المراجع الرئيسية المتخصصة فى عرض الموضوعات والحديث المركز عن الآثار

ونصوصها فى مصر أو فى أى مكان آخر هى المعروفة باسم Topographical Bibliography of ancient Egyptian hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings.

وتعود بداية هذا العمل إلى B. Porter & R. L. B. Moss بمساعدة E. W. Burney وبعدهما، استأنف J. Malek العمل الذى يتم تحت إشراف Oxford Griffith Institute وينقسم إلى وحدات جغرافية رئيسية : مصر السفلى والوسطى، ممفيس، المعابد الرئيسية والمواقع الأثرية فى مصر العليا، المقابر الملكية والخاصة ومعابد طيبة والنوبة ومناطق أخرى. ومن المتوقع أن يصدر مجلد جديد يتعرض للآثار ونصوصها المحتفظ بها داخل المتاحف ذات الأصل غير المعروف. وقد تم تحديث وتنقيح عدد من أجزاء دائرة المراجع هذه. وهناك مشروعات أخرى تجمع أنوا ع أخرى من المعلومات فمثلا Fouilles et travaux en Egypte et au Soudan لمحررها J. Leclant يساعده الآن G. Clerc تتعرض للأعمال الأثرية فى وادى النيل و ما تم اكتشافه من آثار مصرية سواء على أساس الموقع الأثرى أو المنطقة، ويتم نشرها سنويا فى دورية اسمها Orientalia. أما Répertoire bibliographique des temples ptolémaïques et romains لمحررها C. Grenier فقد خلفت موسوعة N. Sauneron واحتوتها وتشمل كل الدراسات والملاحظات التى تتعلق بالنقوش والكتابات فى هذه المعابد حتى سنة ١٩٧٤. إن أوراق البردى مجال لمحاولات كثيرة فى عمل

دوائر مراجع خاصة بها. وآخر هذه المحاولات وأكثرها تكاملا العمل الذى قام به M. Bellion ونشر سنة ١٩٨٧. وهناك أعمال أخرى تنتظم حول هذه الموضوعات أو الموضوعات أخرى على نحو أو آخر. وبجانب هذه المشروعات المتميزة هناك أعمال تهدف إلى تسجيل وإحصاء مجموع ما يصدر سنة بعد أخرى فى أدبيات علم المصريات، وأشهرها Annual Egyptological Bibliography, J. M. Janssen وقد بدأ صدورها سنة ١٩٤٧ ويشرف عليها الآن L. M. J. Zonhoven. وهناك مجلد خاص بمثابة فهرس للموضوعات الكاملة التى صدرت فى المجلدات العشر الأولى، كما يتضمن كل مجلد يظهر الآن فهرسا خاصا بالمؤلفين، إن للمقالات والتعليقات على الكتب أرقامها وملخصاتها. وتفرض ضخامة هذا العمل على الباحث أن يتحمل التأخير الذى قد يمتد سنين عديدة بين ظهور النصوص التى هى مجال التعليق وظهور المجلد الذى سينشر فيه هذا التعليق حسب دوره. ويخفف من هذا التعطيل الذى يسبب كثيرا من المتاعب المجهدة ظهور Preliminary Egyptological Bibliography التى يصدرها بلا تعليق الاتحاد الدولى لعلماء المصريات، وظهور Bulletin Signalétique التى يصدرها المركز القومى للأبحاث العلمية فى فرنسا وهى تختص بالمقالات وتقوم بتحليلها. وتظهر تقريبا بعد فترة قصيرة من صدور المجلات والدوريات، وتغطى التعليق على

أغلبها، وخاصة الدوريات التى لا تنشر إلا نادرا موضوعا يتعلق بعلم المصريات، وهى دوريات يصعب الوصول إليها دون توجيه.

أما الموسوعات العلمية فهى ليست كثيرة فى علم المصريات. وإذا استبعدنا الفصول المحددة التى تتضمنها الأعمال الضخمة فلا يتبقى فى هذا المضمار سوى Reallexikon der ägyptischen Religionsgeschichte لمؤلفه H.Bonnet وترتكز هذه الموسوعة على الموضوعات الدينية. ومنذ سنة ١٩٧٥ بدأ E.Otto & W.Helck عملا مشتركا دوليا لإصدار Lexikon der Ägyptologie حيث الحاجة كانت ماسة جدا إلى مثل هذه الموسوعة التى تلعب فى نفس الوقت دور القاموس ودائرة المعارف ودائرة المراجع الحديثة حول كل موضوع معروض للمناقشة. وهناك أعمال أخرى جامعة لموضوعات كثيرة تقدم خدمات تكميلية.

إن قاموس Wörterbuch der ägyptischen Sprache لمؤلفيه A. Erman& H. Grapow تم نشره بين سنة ١٩٢٦ حتى ١٩٣١. وليس هناك قاموس آخر يحل مكانه. ومع ذلك فهناك مبادرات متعددة تهتم بمراحل خاصة فى اللغة : المرحلة الوسطى، الحديثة، الديموطيقية والقبطية، أو فى مفردات خاصة تتعلق بعلم الطب أو المعادن إلخ. وهناك قواميس أخرى وفهارس تقوم بجرد وتسجيل أسماء المواقع والأشخاص، أسماء الملوك الألقاب وكل أنواع الأسماء مثل Ancient Egyptian Onomastica لمؤلفه A. H. Gardiner وهناك عمل يتسم بأصالته بدأه سنة

D. Meek ١٩٨٠ وهو لم يتعد المجد الثالث واسمه- Année Lexicog-raphique.

٤ - النشر العلمى

إن نشر الأعمال التاريخية مثلها مثل أعمال الآثار أو الأعمال اللغوية تكون بالطبع على درجة من الأهمية فى تقدير عالم المصريات مهما كان التخصص الذى يبحث فيه. ويختار عالم المصريات بين أن يكتب مقالا أو أن يدخل فى عمله النتائج التى أمكن الحصول عليها من خلال دراسة موسعة، وذلك حسب نوعية البحث الذى يقوم به وحسب درجة تقدم هذا البحث. إن المقالات ذاتها يمكن أن تكون مجرد تعليقات أو حواشى بسيطة، الهدف منها الإعلان بشكل سريع عن اكتشاف أو فتح الطريق لمناظرة أو الإجابة على اقتراح من زميل. وهناك دوريات تكرس جزءا من جهودها أو كل جهودها لنشر هذه المقالات القصيرة. ويمكن للمقالة أن تكون توضيحات حديثة أو معمقة حول نقطة خاصة أو نشر كتاب عن أثر من الآثار، هذا إذا لم يكن سلسلة صغيرة من الآثار. ويعتمد كل شىء على نوايا الكاتب والوسائل التى توضع تحت تصرفه.

وتقبل العديد من الدوريات التى تدور حول المصريات أو تعالج مشاكل الشرق القديم فى البلاد ذات التقاليد الراسخة فى علم المصريات الأغلبية الساحقة من المقالات التى تقدم إليها. وتوصى لجان القراءة بنشر المقالة أو تقترح على المؤلف تعديلات

وتصحيحات إذا لزم الأمر. ويتم تحرير هذه الدوريات بلغة البلد التى تصدر فيها، ولكنها تنشر أيضا مقالات باللغة الانجليزية أو الفرنسية أو الالمانية، بالإضافة إلى نشر ملخصات بالانجليزية، وهذا شىء يزداد شيوعا الآن يشهد على أن الاهتمام بالاتصالات وتبادل الآراء بين علماء المصريات أو الدارسين المتخرجين من مدارس مختلفة أصبح شيئا مألوفا. إن هذا الجهد لا غنى عنه، لأن عائق اللغة عقبة خطيرة أمام استيعاب واستغلال كل إمكانيات المراجع المتوفرة حول موضوع من الموضوعات، فهناك بعض التقارير عن حفريات باللغة العبرية فقط ودراسات أساسية عن الاقتصاد والمجتمع المصرى باللغة الروسية دون ترجمة إلخ.

ولا تلعب الدوريات جميعها نفس الدور. إنها مجبرة فى أغلب الأحيان أن تبقى مفتوحة لكتابات مختلفة، سواء لأنها الوحيدة القادرة على أن تلعب هذا الدور فى قطاع جغرافى محدد، أو لأنها تخدم أولا مصالح المؤسسة التى تنتمى إليها. وبصرف النظر عن نوعية هذه المؤسسات - معهد من معاهد علم الآثار أو العمارة أو البرديات - إلخ، فإن لأعضاء هذه المؤسسات بالضرورة اهتماماتهم الخاصة المميزة التى قد تختلف عن موضوعات البحث المشتركة. إن مهمتها فى الأساس خدمة مصالح علماء الآثار هؤلاء، والسماح لهم بتقديم أعمالهم. وفى نفس الوقت فعن طريق التقاليد المتبعة أو الاهتمام بتشجيع تطور وجهات نظر مختلفة فى مجال محدد، فلبعض الدوريات دور مميز

فى مجال ما تختاره للنشر، وهذا شىء قد لا ترحب به هيئات المسئولين أو المعقبين، ذلك أن بحثنا يشرف عليه أشخاص متعددون وفقا لوسائل تكنيك واتجاهات مختلفة بعضها عن بعض لهو شىء قريب الشبه بأجزاء صورة مبعثرة هنا وهناك، حيث يتعذر على هؤلاء الذين لا يعرفون مضمون الموضوع أن يلموا بكل هذه الأجزاء المتباعدة.

وهناك أعمال كثيرة يقدمها أفراد أو جماعات تغنى كل سنة أدب علم المصريات هذا بالإضافة إلى الدوريات التى يشرف على تحريرها هيئة جامعية أو هيئات المؤسسات أو معاهد واتحادات علماء المصريات. وتظهر بعض هذه المؤلفات فى مجموعات يجمعها موضوع واحد أولا، قد تكون تقارير عن أعمال الحفريات أو الدراسات عن مقابر أو معابد أو مادة أثرية مصنفة...الخ، وبعضها يظهر منفردا سواء يقوم بالنشر ناشرون متخصصون فى الدراسات الشرقية أو التاريخ القديم أو الديانات الوثنية أو يقوم المؤلفون أنفسهم بتوزيع الكتاب عن طريق المراسلة. وتطبع غالبية هذه الكتب بمساعدة مالية، ولا يسمح طبع ما بين ٤٠٠ إلى ألف نسخة بالحصول على نفقات الطباعة إلا نادرا، بالإضافة إلى أن عملية التوزيع – فيما عدا حالات نادرة – لا تخضع لتنظيم سليم، مما يقلل من المبيعات وبالتالى من الأرباح.

وتختلف أساليب تنفيذ هذه الكتب وتقديمها، فبعضها يتم طبعه على طريقة "الأوفست" انطلاقا من وجود مخطوطات مكتوبة على

الآلة الكاتبة، بينما بعض الكتب ثمرة عمل طويل من الرسم والجمع الدقيق. الكتب الأولى بالطبع أقل تكاليف من الثانية. وحسب الواقع والمنطق، تخصص الطبعات الممتازة لنشر الآثار التى تستلزم نوعية فى الإنتاج تسمح بتقديم الدقائق المعمارية أو التصويرية أو التفاصيل الدقيقة فى الأحرف المستخدمة فى الكتابة، وتخصص طبعات متواضعة للدراسات التى لا تمثل إلا مرحلة فى العمل ولا تتطلب تصويراً أو نسخاً طبق الأصل. إن التطور الحديث فى الجمع التصويرى والتنسيق والتعاون بين الآلات التى يستخدمها الناشرون والكمبيوترات التى يستخدمها المؤلفون تسمح بتخفيض ملموس فى النفقات وفى نفس الوقت تحافظ على مستوى لائق فى الطباعة .

٥ - المؤتمرات

فى سنة ١٩٧٦ انعقد المؤتمر الدولى الأول لعلماء المصريات فى القاهرة. وقبل ذلك كانت اجتماعات علماء المصريات تتم فى إطار مؤتمرات المستشرقين. ولكن نتيجة التزايد الملموس فى عدد علماء المصريات المشتركين أصبح من الملائم أن ينتظموا فى هيئات خاصة بهم. ولهذا تأسس وفقا لهذه المناسبة الاتحاد الدولى لعلماء المصريات. وينشر الاتحاد دليلاً سنويا لأعضائه ويصدر البيلوغرافيا السنوية التى ذكرناها فيما قبل. إن هذه المؤتمرات تم انعقادها على التوالى فى "جرينوبل" و "تورنتو" و

"ميونخ" ومرة أخرى في القاهرة مرة كل ثلاث سنوات. وليس المؤتمر قاصرا على المحترفين. ويقدم أكثر من خمسمائة بحث وتعليق في المؤتمر طيلة خمسة أيام، ويحضره آلاف الأعضاء مما يستلزم تنظيما قائما على درجة عالية من البرمجة الدقيقة، ويستتبع اجتماعات فرعية في نفس الوقت كل يوم .

ومن الواضح أن لهذه الاجتماعات أهمية عظمى فيما يتعلق بالدراسات المصرية القديمة، إذ تعطى فكرة محددة عن عدد المحترفين والهواة في كل بلد، كما أنها فرصة لتبليغ الإعلانات والبيانات الخاصة بالأعضاء، وتسمح بتبادل الرأى بين متحدثين على كل المستويات ومن كل الأصول. وتمثل هذه المؤتمرات الملتقى المثالى عندما تبرز الحاجة إلى عمل معين، أو توجيه نداء، أو اتخاذ خطوات لها ما يدعمها من النفوذ، أو تقديم مجلة جديدة. ولكن هناك من الجانب الآخر عوامل غير مواتية مثل ضرورة الاختيار بين الأبحاث التى تقدم في المؤتمر في آن واحد، أو استحالة مقابلة كل أعضاء المؤتمر الذين نرغب في مقابلتهم، ولكنها ظروف تنبع من نجاح المؤتمرات.

ولهذا، فبالإضافة إلى هذه النشاطات التى لا غنى عنها، وإن كانت لا تسمح إلا في حدود ضيقة بصراع علمى عميق، فهناك التقاءات دورية أو غير دورية متزايدة، تدور حول منطقة من المناطق أو موضوع أو تخصص معين. فمنذ وقت مضى تعقد الدراسات النوبية، والحضارة الميرويتية والبرديات وفن الخزف

اجتماعاتها الخاصة خارج مؤتمرات علم المصريات. وتشكلت حديثا مجموعات عمل حول موضوع ما قبل التاريخ فى وادى النيل أو حول الدلتا أو ممفيس، أو التجمعات السكانية فى مصر أو السودان أو الخزف النوبى...الخ. وتستجيب هذه اللقاءات والحواريات لحاجات خاصة، وتنعقد بين عدد محدود من متخصصين فى مجالات نشطة وصعبه فى نفس الوقت، حيث يصبح من المحتم أن يحصل المرء بشكل سريع على معلومات عن الاكتشافات التى لم يتم نشر أعمال عنها وعن المشاكل الجديدة التى تظهر فى الأفق .

و يمكن معالجة كل أنواع الموضوعات بالغة الخصوصية أيضا فى إطار لقاءات بين الحين والآخر، مثلا الدولة واقتصاد المعابد، السحر، الديانات المتأخرة ...الخ. إن هذه اللقاءات، سواء كان المقصود منها مؤتمرات كبيرة فى إطار المهنة، أو ندوات محدودة مقصورة على عدد من الثقاة، تنشر فى العادة الأبحاث المقدمة فيها أو جزء منها، وذلك حسب رغبة المشتركين. وإذا كانت هذه الندوات تدور حول موضوعات محددة، فإنها تتجسد فى صورة مجلدات مفيدة للغاية حيث أنها تركز الحد الأقصى من المعطيات الحديثة التى يقدمها أحسن الخبراء فى هذا الصدد.

٦ - نشر المعارف

إن الهدف من الأبحاث التى يتم تنفيذها، مهما كان الدافع أو الإطار المرسوم لها، هو التوزيع والانتشار. ويتم هذا الانتشار وفقا لحجمها وطبيعتها، بصورة تدريجية أو على شكل طفرة واحدة، وبصورة تفصيلية إلى هذا الحد أو ذاك، حسب الجمهور المقصود. فهناك الكثير من الناس المعنية بشكل أو بآخر بالنتائج المتحققة، سواء كانت تتعلق بالآثار أو الدراسات اللغوية أو التاريخية أو الأدبية أو غير ذلك. ومن المهم إذن تقديم عرض للأعمال التى فى طريقها للإنجاز أو تم إنجازها، حسب ما تثيره هذه الأعمال من اهتمام لدى دائرة قد تضيق أو تتسع من المتخصصين، أو لدى زملاء يعملون فى تخصصات أخرى قريبة أو لدى الدارسين والهواة.

وعادة ما يحدث فى الحلقات الدارسية أو المحاضرات فى الجامعة أو أمام جمعيات العلماء أن يتاح لعلماء المصريات فرصة الحديث عن أبحاثهم التى هى فى مرحلة التنفيذ، وتتاح لهم هذه الفرصة أيضا فى المؤتمرات والندوات. وفى هذه المرحلة يقنعون عادة بتقديم ملاحظات قصيرة عندما ينشرون نصا من النصوص، إلا إذا كانت التعليقات شفوية موجهة إلى عدد محدود من الزملاء والدارسين. وإذا كان الأمر يتعلق ببرنامج طويل المدى، يحسن كتابة مقال على الأقل حول العمل بعد سنة أو سنتين. وإذا افترضنا أن الأمر يتعلق بحفريات يقدر لها أن

تستمر عشر سنوات أو أكثر، ففى هذه الحالة لا بد من نشر تقارير تسبق مرحلة النشر النهائية. ويوكل إلى بعض الإخصائيين القيام بدراسات تفصيلية عن بعض الآثار المحددة. وتقدم أبحاث خاصة بالتقويم الزمنى وبتصنيف الآثار. وتقدم هذه المادة إلى علماء الآثار لإحاطتهم علما بما يجرى وحتى يحددوا نتائج هذه الأعمال بالمقارنة بأعمالهم الخاصة. ويتم نفس العمل أيضا عند القيام بنشر بردية من البرديات أو الكتابة عن معبد، أو أى موضوع آخر يستغرق إنجازه وقتا طويلا .

إن النشر النهائى لعمل من أعمال الحفريات مهمة ثقيلة تتطلب عادة من فريق الباحثين العاملين أن يوقفوا عملهم الميدانى بضعة سنوات. ولا يتضمن النشر تقديم ملامح المادة الأثرية وعناصرها المكتشفة فحسب، بل يتضمن توليفا تاريخيا ودراسات عديدة مقارنة خاصة بالآثار والنصوص المكتشفة. ويستلزم نشر وثيقة أو ملف أو مبنى أثرى كبير أو مجموعة من التحف وقتا طويلا، سواء فيما يتعلق بتجميع المادة الموثقة الموزعة على مجموعات عامة وخاصة فى العالم كله، أو فيما يتعلق بالحالة التى عليها الأثر المكتشف أو صعوبة النصوص التى تصاحبه والتى تقتضى إعادة نظر شاملة فى كل الآثار والنصوص المشابهة الموجودة، أو فيما يتعلق بندرة هذا النمط من الآثار مما يحرم عالم المصريات من شعاع نور يهتدى به .

ولا تنحصر دراسة معبد من المعابد أو مقبرة فى دراسة المناظر التى تزخرفها فحسب، بل تفترض تحليلا معماريا وكشفا أثريا للمنطقة السكانية التى اكتشف فيها هذا المعبد أو هذه المقبرة. ويستتبع نشر الأعمال عن الأوانى النحاسية القيام أولا بعمليات من الترميم تسمح بإلقاء الضوء على زخارف ونقوش محفورة، وتحاليل لتحديد المخاليط المعدنية المستخدمة. إلا أن هذه الأعمال تعتمد على الأجهزة الموضوعة تحت تصرف الباحث أو فريق الباحثين وفقا للزمن المتاح لهم، مع مراعاة المهام الأخرى التى يقوم بها الباحث أو فريق الباحثين، ومع مراعاة عامل السرعة الذى يتمنى المسئولون عن العمل فى إطاره أن ينشروا العمل كاملا. إلخ. وبعد الدراسة نفسها تأتى أعمال الرسم والجمع والتصوير والطباعة التى قد تستغرق وقتاً قصيراً أو طويلاً حسب الأساليب الفنية المستخدمة سواء كانت نسخة مطبوعة أو نسخة بخط اليد أو جمعاً يدويا أو جمعاً بالكمبيوتر.

وقد يكون من العقم بل من الخطر أيضا أن تنحصر الدراسات المصرية فى أبحاث محدودة تدور حول نقاط معينة أو مجرد نشر مادة أثرية أو نصوص. إن مثل هذه الدراسات التى ينبغى أن نبدأ بها وأن نكرس لها الجهد والدقة، لابد أن تصبح فيما بعد مادة لأفكار وأبحاث أكثر تكاملا. وهذا ما نحتاجه حتى يتقدم استيعابنا للتاريخ المصرى. إن هذه المرحلة بما تتضمنه من إثارة وتشويق تعطينا فى نفس الوقت درسا فى التواضع، لأنه

إذا كنا نأمل ونحن نبذل أقصى عنايتنا فى نشر عمل عن أثر من الآثار، أن نراه صحيحا لا خطأ فيه لفترة طويلة قدر الإمكان، فمن المستحيل أن يراودنا نفس الأمل فيما يتعلق بأعمال تصبح محل تساؤل وشك على الدوام، من جراء اكتشافات جديدة تدعو إلى إعادة النظر فى نقطة أو أخرى. إذا قبلنا هذه الحقيقة يصبح التعامل مع موضوع من الموضوعات وتطوير أفكارنا شيئا فشيئا مع مايكشف عنه الواقع الفعلى لعلم المصريات من غنى وثراء شيئا مثيرا للنشوة العارمة .

ويمكن توجيه هذه الدراسات بأساليب متعددة، مثلا فى إطار رسالة جامعية أو سلسلة كتب للخاصة أو للجمهور العريض من القراء. ومن الممكن مراعاة المعايير العلمية وهى الدليل على بحث عميق، فى حالة عمل دراسة موجزة أو كتابة مقال لقراء بعيدين عن الموضوع، وجعل هذه المادة فى متناول العدد الكبير من القراء. وهذا يتطلب القدرة على الاختيار بين الموضوعات المطروحة حتى يمكن الجمع بين الدقة والوضوح دون السقوط فى مناقشات لا تثير اهتمام أحد. وهذا يفترض مناهج فى البحث تدخل فى حسابها أبعاداً تاريخية تتجاوز الإطار الفرعونى. وعادة ما ينسى علماء المصريات أنهم مؤهلون ليقوموا بدورهم كمؤرخين حقا دون أن يضلوا الطريق. وهذا قصور يدل على جديتهم ولكنه من شأنه أن يؤدى إلى حرمان الدارسين من أدوات العمل الحديثة، وحرمان القراء العاديين من المعلومات الموثوق

فـيـهـا ، تاركين هؤلاء و أولئك تحت رحـمـة المشـعـوذين الذين لا يراودهـم مثل هذا الحرص على الدقة والتدقيق .

الفصل الخامس
تدعيم المؤسسات العلمية والمالية

لا أحد يستطيع القيام بأبحاث ميدانية دون وجود هيئة علمية رسمية كفيلة بضمان الأعمال المقرر تنفيذها . وسنؤجل الحديث عن مصر إلى الفصل الأخير. المقصود بالهيئات الضامنة، الأكاديميات والجامعات ومراكز البحوث والمتاحف التى لديها مواردها الخاصة، ولكن من الممكن أيضا أن تقوم جهات أخرى قومية ودولية بأعمال متعددة، وأن تعضد ماليا هذه الأعمال، من بينها مؤسسات خاصة وعامة وشخصيات تناصر الحركة الأدبية والعلمية وشركات تساهم ماليا من أجل الحصول على دعاية غير مباشرة تحت إشراف متخصصين .

١ - التعليم العالى

تحتل الجامعات مكانة بالغة الأهمية بفضل الدور المزدوج التى تقوم به مهنيا : أى التعليم والبحث. وكثيرا ما تقترح الجامعات أيضا عقد اجتماعات موسعة مفتوحة لكل الراغبين فى الحضور، وذلك فى إطار إجازات الصيف أو «جامعات كبار السن».

وليس هناك سوى بضع عشرات من الجامعات فى كل أنحاء العالم التى يوجد فيها تدريس علم المصريات، وبعضها يقدم أيضا دراسات عن النوبة، وهذا فى حد ذاته مظهر قوة وضعف

معاً. مظهر قوة بمعنى أنه من المنطلق المطالبة ببعض الإمكانيات والحصول عليها لصالح عدد محدود من المراكز التى تمثل نوعا من الدراسات له مكانته ونفوذه. وفى نفس الوقت مظهر ضعف، تشاركه فيها فروع أخرى من الدراسات الشرقية، إذ أنها تبحث عن الاندماج فى فروع الدراسات القديمة أو الدراسات التاريخية بشكل عام، فيما يتعلق بمناهج الدراسة الجامعية وإمكانيات العمل بعد التخرج. وتوازن بعض الجامعات هذا الموقف الضعيف الذى يتسم به علم المصريات عن طريق الجمع بين المصريات وفروع دراسية شرقية أخرى داخل معاهد متخصصة هامة، كما هو الحال فى شيكاغو. إن هذه المراكز العلمية التى تتسم باستقلالية فى العمل تيسر لدارسيها الحصول على ثقافة إضافية فى الفروع الدراسية القريبة دون الاضطرار إلى الانتقال من مدينة إلى أخرى. وفى فرنسا يقوم القسمان الرابع والخامس فى «كلية فرنسا» Collège de France و«مدرسة الدراسات العليا» École Pratique des Hautes Études بهذا الدور أفضل مما تقوم به الجامعات التى يدرس فيها علم المصريات كمادة منعزلة، باستثناء جامعة "ليون" الثانية التى تضم "معهد فكتور لوريه للمصريات" وهو جزء من «دار الشرق» Maison de l'Orient. وفى أماكن أخرى يتم الجمع بين الدراسات المختلفة وفقا للظروف المحلية المتاحة، مثلا تاريخ الأديان وعلم

الآثار واللغات القديمة ...الخ، وفقا للتقارب بين ممثلى هذه الفروع.

وهناك نوعان من الإعداد الدراسى للطلبة. نوع يقدم للراغبين فى التدرب على أعمال المهنة، والنوع الآخر يقدم للأغلبية من الدارسين الذين يختارون درساً أو درسين فى علم المصريات فى إطار مقرراتهم. وتشهد أغلب هذه الدروس إقبالاً ملحوظا. وإذا حدث وتعرض هذا الحماس لحالة من الركود فلا بد أن يكون المسئول عن ذلك هو مجئ أستاذ سيئ للغاية. وتجذب دروس اللغة فى حد ذاتها اليوم عددا أكبر من الراغبين فى دراسة اللغة اللاتينية. وهذا ما يفسره السحر الذى تمارسه عادة اللغة الهيروغليفية على دراستها. وبالطبع تضيق شيئا فشيئا دائرة المترددين على هذه الدروس نظرا للمجهود الذى تتطلبه، ولكن لا يمنع هذا من أن مئات من الطلبة الذين لا يطمحون فى الاحتراف بل يدرسون خلال سنة أو سنتين اللغة المصرية.

وكما رأينا فى الفصل الأول فيشاطرهم فى هذه الرغبة أعداد كبيرة من الهواة. وفى الولايات المتحدة الأمريكية تنافس الكليات الخاصة كليات الدولة، أما فى فرنسا فتركز الدراسات الخاصة على جمهور من الباحثين أو تقدم للدارسين دروساً تكميلية أو تعالج ثغرات فى معارفهم، ولكن ليس من حق المسئولين عن هذه الدراسات إعطاء شهادة معترف بها. وهناك دراسات جامعية جديدة فى علم المصريات فى بلاد مثل البرتغال واليابان

واستراليا بمبادرة علماء تاريخ أو آثار نشطين، ورغم أن هذه الجهود المتعددة لتوسيع دائرة المهنة والاستجابة لتزايد الطلب تتطلب أحيانا من أصحابها إصرارا متواصلا قبل أن ينالوا شرف الاعتراف بجهودهم، فالاتجاه فى حد ذاته طيب، وكل دفعة جديدة تساعد أوجه التقدم الأخرى.

ويمكن بالطبع التجاوز عن مرحلة الأبحاث فى المعاهد الجامعية المنعزلة، ولكنه من المفضل بعد عدد من السنوات أن يتمكن المرء من الاستفادة من حلقات دراسية أخرى بدلا من تلك التى تعود عليها. وطالما هناك جامعات عديدة متجاورة فيها أساتذة فى علم المصريات، فمن الممكن حل هذه المسألة بسهولة. ويحسم الطلبة الذين يحصلون على منح دراسية لهذا الغرض أمورهم ويسافرون ليستمعوا إلى دروس الأساتذة محل اختيارهم حتى ولو بعد المكان. إن بعض المدن التى تضم مراكز على درجة عالية من الكفاءة لهى محظوظة فى هذا الصدد. وتشمل باريس علاوة على السوربون (جامعة باريس ٤) الدراسات شديدة التخصص التابعة إلى مدرسة الدراسات العليا École Pratique des Hautes Études وكلية فرنسا Collège de France بالإضافة إلى الدراسات المتنوعة التى تقدمها مدرسة "اللوفر"، والمعهد الكاثوليكى والمعاهد الخاصة، وهذا وضع فريد. وتحتوى على أقسام عديدة يتخصص كل منها فى مجال محدد. ويدخل علم المصريات فى دراسات الأقسام الرابعة

والخامسة الخاصين بتاريخ الأديان وعلم فقه اللغة. وكان "جاستون ماسبيرو" هو المدير الأول لهذه الدراسات وقد عين سنة ١٨٦٨. والدراسات عبارة عن تكوين وتدريب أولى للدارسين على البحث العلمى وتنتهى بالحصول على دبلوم من المدرسة أو الحصول على دكتوراة. أما كلية فرنسا فهى على العكس لا تمنح شهادات. ولقد أصدر لويس فيليب قرار فى الثانى عشر من مارس سنة ١٨٣١ بتأسيس كرسى الأستاذية فى علم المصريات، وأسنده إلى "جان فرانسوا شامبليون". ومنذ بداية التدريس فى هذا القسم، الذى سمى حينا علم الآثار وحينا علم فقه اللغة والآثار المصرية وحينا علم المصريات، لم يحدث أن انقطع إلا مرتين لفترة قصيرة. وهو عبارة عادة عن درس على مستوى عال جدا مفتوحا لجمهور عريض وللطلبة الدارسين أيضا، ويتضمن أيضا حلقة دراسية ينضم إليها الباحثون المتقدمون. ويرجع أيضا لجان فرانسوا شامبليون الفضل فى وضع درس عام فى علم المصريات فى متحف اللوفر سنة ١٨٢٦ وكان يدور حول نظم الكتابة الفرعونية. واليوم تقدم مدرسة اللوفر دروساً مختلفة فى تاريخ الفن وعلم الآثار واللغة ضمن الدراسات الأولية للحصول على دبلوم يدخل فيه كتابة بحث والإعداد للعمل فى المتاحف خاصة. أما المعهد الكاثوليكى فهو مؤسسة عليا للتعليم لها نفس صلاحيات الجامعات.

وتستفيد الدراسات فى الأقاليم كتعويض للعزلة التى سبق أن تكلمنا عنها، من إمكانيات تهدف لتعميق الدروس وحلقات الدراسة عن طريق الجوانب التطبيقية التى تتضمنها مناهج التعليم. وعلى سبيل المثال يحتفظ معهد البرديات وعلم المصريات فى جامعة "ليل" الثالثة بمجموعات أثرية متواضعة ولكن لها جاذبيتها، ومن هنا تلعب دورا تربويا هاما بالنسبة للدارسين، كما تحفز التعاون بين الأساتذة لنشر هذه الوثائق. وينشر هذا المعهد مجلة تمثل بالنسبة للباحثين والدارسين المتقدمين أرضية ممتازة للتعبير. كما أن الحفريات التى يشرف عليها فى سيناء والسودان تمثل إمكانيات طيبة يستفيد منها المتعاونون مع هذا المعهد، وذلك فى مجال العمل الميدانى. وللمعهد أخيراً بنك معلومات ومجموعات من الوثائق ومكتبة كاملة.

٢ - هيئات الأبحاث

تمتلك أغلب البلدان المرتبطة بتدريس علم المصريات والأبحاث المتعلقة بها، هيئات تنظم الأعمال العلمية فى كل التخصصات. وتختلف هذه الهيئات من بلد إلى آخر، فيقتصر بعضها على أن تلعب حلقة وصل بين انتهاء الدراسة وبداية حياة الاحتراف، ويقوم بعضها بتمويل مشروع فى وقت قصير نسبيا، سنتين أو ثلاثة. ويقوم المركز القومى للأبحاث العلمية الفرنسى بالدورين، ولكنه فى نفس الوقت يسمح لعدد كثير من الباحثين العاملين فى

الفروع المختلفة أن يتفرغوا تفرغا كاملا لأبحاثهم الوقت الذى يريدونه، وهذا شيء نادر. ولكن لهذا النظام جانبه غير المريح، إذ يقل بانتظام عدد الباحثين الجدد المرشحين بسبب قلة عدد الباحثين القدماء الذين يغادرون المركز، وإن كان المركز يحاول الآن تشجيع الباحثين القدماء على الانتقال إلى الجامعة.

إن هذه المساندة، إلى جانب تعيين بعض الباحثين، تتجه أساساً إلى المعامل التابعة للمركز أو المتعاونة مع الجامعات. أما دوافع سياسة المساندة فهى تشجيع العمل الجماعى، وهو أكثر خصبا وترابطا، كما رأينا فى حالات كثيرة، كما هو الحال فى تعدد التخصصات الذى يضاعف من الدراسات التكميلية بدلا من تركها معزولة أو مبعثرة، والاستفادة إلى أقصى حد من المواد والمعدات والوثائق ...الخ. وتستطيع هذه المعامل بالإضافة إلى ذلك الحصول على مساعدات لتنظيم المعارض والندوات ولنشر الكتب والمجلات أو استقبال باحثين أجانب لفترات مؤقتة. ويمكن أن تدفعنا هذه الصورة للاعتقاد أن هناك إمكانيات طيبة وظروفا ملائمة لأبحاث علم المصريات. ولكن هذا خطأ لأن كل مساعدة تتضمن عند قبولها عددا غير محدود من الإجراءات الروتينية لا تتناسب بأية حال من الأحوال مع المبالغ المقدمة. لكن إمكانيات الحصول على وظائف أو اعتمادات مالية شيء نادر لدرجة أن المسئولين عن مراكز الأبحاث لا يترددون فى تضييع وقتهم الخاص فى متابعة هذه الإجراءات. إن الشيء المهم هو إيجاد

منفذ بين الحين والآخر لعلماء المصريات الشبان الذين اثبتوا جدارتهم والاستفادة من كل الفرص لتشجيع الأعمال القيمة. وبالاضافة إلى هذا فإن أية مساعدة مهما كانت رمزية، فهى فى أغلب الأحيان دفعة لمساعدات أخرى. وهناك اتفاقات قائمة بين مختلف المعاهد المعنية تضمن التعادل فى توزيع الاعتمادات حتى ولو كانت مساهمات مالية كبيرة. إن اعتراف المركز القومى للبحوث العلمية فى فرنسا بمعهد من المعاهد لهو امتياز يدفع الثقة لدى ممولين آخرين لمنحه الاعتمادات المالية.

وفى النهاية يتضمن جهاز على هذه الدرجة من الأهمية أنظمة وخدمات لا يجدر بنا أن نقلل من فائدتها : معامل للتحليل من كل الأنواع، معاهد خاصة بالأجهزة السمعية والبصرية والتسجيل، دورات تدريبية على الكمبيوتر أو على اللغات المستخدمة فى أعمال الآثار، و أدوات القياس المستخدمة فى الحفر والتنقيب وغير ذلك. إن تواجد الكثير من فرق الأبحاث فى حد ذاته ثروة ضخمة، فهناك ١٣٧٣ فرقة تعمل فقط فى مجال علوم الإنسان والمجتمع - سبعة منها تعمل فى مجال تاريخ مصر والسودان القديم - وتعالج موضوعات بالغة التنوع. وهناك كثير من البلدان تحسد فرنسا على ما لديها من فرص فى هذا المجال .

إن المركز القومى للأبحاث العلمية فى فرنسا وصناديق الدعم القومية فى سويسرا وبلجيكا، والمجلس القومى للأبحاث فى إيطاليا ...الخ، و الوزارات التى تقوم بأعمال دعم مشابهة تساهم

بجـزء هام تحت أشكال مـخـتلفـة من أجل تطوير الأبحـاث الأساسية فى علم المصريات. إن حقيقة ارتباط هذه الأجهزة فى أغلب الأحيان بجامعات ومتاحف وبعثات تنقيب عن الآثار شىء على نفس الدرجة من الأهمية. وتتدعم أيضا العلاقات الوثيقة التى من اللازم الحفاظ عليها بين هذه المؤسسات حتى لا تحرم من مهامها الطبيعية. وإنه بالطبع لعمل انتحارى أن تدخل هذه المؤسسات فى صراع فيما بينها كما حدث أحياناً فى الماضى. إنها الآن تتعاون وتكمل بعضها البعض، ولا تملك الآن إلا أن تستفيد من هذا التقارب وتبادل المعرفة، ولهذا فلابد من تسهيل الطريق الموصل بين التدريس والبحث وفقا لما ذكرناه.

٣ - المتاحف

سبقت المتاحف من الناحية التاريخية الجامعات ومراكز الأبحاث فى دفع علم المصريات إلى الأمام. لقد استقبلت المتاحف مجموعات معينة ضخمة من الآثار بفضل أعمال التنقيب. وبعد ذلك تحققت البداية فى أقسام الدراسات المصرية القديمة فى متاحف اللوفر وبرلين وتورين والمتحف البريطانى ...الخ بمجهودات وكلاء القناصل وعلماء المصريات الأوائل العاملين

تحت رعـاية ملوك أوروبا الذين قـدمـوا دراسـات عن الآثار التى أمكن تجـميـعـها فى نهـاية القـرن التـاسع عشـر. وبهـذا أصـبـحت المتاحف فى البداية شيئا مترتبا على علم المصريات الوليد قبل أن يصـبح المكان المميـز والدعـامـة لهـذا العلم. وأمكن اجـتـيـاز هذه الخطوة بسرعة شديدة، وتتطلب هذه المجموعات الأثرية بكل تأكيد أشكالا مـختلفة من الرعاية والكفاءة فى الحفاظ عليها. وسرعان ما أصبحت مادة تثير الاهتمام والرغبة فى دراستها.

ولفـتـرة طويلة أصـبـح إثراء هذه المجـمـوعـات الأثرية مـركـز اهتمام أمناء المتاحف، وأصبح هدف البعثات المتعددة البحث عن تحف نادرة مجهولة وجميلة. ووفقا لشخصية المسئولين و ما نحى الهيات توجه هذه المنح فى طرق مختلفة جدا، فالبعض يبحث عن تجـميع تحف فنية ذات مسـتوى غير عـادى، كمـا يفـعل مـتـحف "بروكلين"، والبعض الآخـر يفـضل الاسـتحـواذ على الآثار بالغة الأهميـة على المسـتوى التـاريخى أو الدينى أو الأدبى... الخ، كمـا يفـعل المعـهد البـريطانى واللوفـر ومـتـحف "مـتـروبوليـتـان" وتورين وبوسطن... بينمـا تتمنى بعض المتاحف أن تقدم فى المحل الأول عرضـا شـامـلا لمدنية من المدنيات كمـا هو الحـال مع مـجـمـوعـات: "بيترى" فى University College فى لندن علـى سبيل المثال. وفى أحيان كثيرة تتعدد الاهتمامات ويتداخل بـعضـهـا فى بـعض. والآن انتهت قدرات المتاحف على التصرف وفقا لمصالحها نتيجة

صدور القوانين التى تنظم عمل بعثات التنقيب والحد الصارم من حركة الإتجار بالتحف الأثرية.

وفى الوقت الحالى تسمح السودان بإعارة قطع آثار للدراسة أو الترميم وباقتسام التحف التى عثر عليها وذلك بطريقة أكثر سهولة مما يحدث فى مصر التى يتضاءل فيها هذا الاتجاه منذ سنوات عديدة. وباستثناء بعض المنح، وهى فى أغلب الأحيان قدمت للبلاد التى ساهمت فى عمليات إنقاذ الآثار، يقتصر شراء المجموعات الأثرية فى المتاحف على مجموعات قديمة كانت فى حوزة أفراد، تم تجميعها قبل العمل بالقوانين الجديدة وهذه المجموعات فى طريقها إلى الاندثار. وبالطبع قد يحدث أحيانا أن قطعا أثرية مسروقة أو أجزاءا منها يعرضها للبيع تجار التحف القديمة أو صالات المزادات. ولكن تلتزم أغلب المتاحف وخاصة متاحف أوروبا بمبدأ عدم شراء تحف أصلها مشكوك فيه. ولهذا يقل على التوالى هذا النوع من التعامل. والبوليس الدولى مشغول حديثا بمتابعة عمليات مشابهة.

ولا نجد المجموعات الأثرية المصرية فى المتاحف الكبيرة فحسب، بل يمتلك عدد لا حصر له من المتاحف المتفاوتة فى أهميتها المتخصصة فى كل أنواع النشاط المتحفى بعض الوثائق التى من المفيد التعرف عليها وتجميعها فى أعمال منشورة. وبين هذه المجموعات الكبيرة والصغيرة يجد أمناء هذه المتاحف شيئا يعملونه يفتح بابا لمهنة سوق العمل فيها محدود. ولكن نشاطات

المتاحف لا تنحصر فى تجميل ما لديها من مجموعات وتقديمها. إن المهام عديدة تبدأ من الإعداد للمعارض وإعارة التحف لمعارض الآخرين، ودراسة القطع الأثرية وترميمها حتى تنظيم الندوات والمؤتمرات والزيارات المصحوبة بمرشدين فى الآثار ومراسم للأطفال. كما أن المتاحف هى الهيئات التى يبدأ الإنسان باستشارتها فيما يتعلق بالمعلومات عن مصر القديمة التى تتضمنها نشرات وكالات الأنباء. ومن بين المهام الأخرى استقبال الزملاء الذين يرغبون فى عمل دراسة عن وثيقة أو سلسلة من الوثائق، أو إرسال أبحاث يطلبها بعض الباحثين بالمراسلة، فليس فى إمكانهم الانتقال، أو فهرسة الوثائق. وتتطلب إدارة المعاهد الكبيرة هيئة إدارية كبيرة تنمو بفضل السياسات الثقافية النشطة التى تقوم هذه المتاحف بتطويرها.

وتقدم بعض هذه المتاحف دراسات نظرية أو تطبيقية وتستقبل الدارسين القادمين للتدريب. وأحيانا تزود هذه المتاحف بمكتبات ومجموعات من الصور الفوتوغرافية وقسم لحفظ الوثائق مما يهيىء لها أن تلعب دورا شبيها بدور مراكز الأبحاث فى الجامعات. ولقد أصبح نشر أعمال عن هذه المجموعات مهمة لها الأولوية بشكل خاص سواء قام بهذا العمل أمناء المتاحف أنفسهم أو متعاونون جاءوا من الخارج. وفى النهاية إذا كانت المتاحف لا تتوقع الآن أن يزيد رصيدها بفضل أعمال بعثات

التنقيب، فهذا لا يمنعها من تنظيم بعثات جديدة إلى مصر والسودان.

٤ - الهيئات الدولية والتعاون

يخضع تمويل أعمال التنقيب عن الآثار خارج الوطن لقواعد تختلف من بلد إلى آخر، ويعتمد على قرار هيئات مختلفة. وفى الواقع هناك درجة كبيرة من المرونة فى إدارة هذه العمليات وزارات التعليم القومى أو البحث أو الثقافة أو الشئون الخارجية. وتساند هذه الوزارات مشروعات كثيرة، مساندة كاملة أو جزئية، عن طريق بعثات مؤقتة سنوية أو لمدة سنتين أو بعثات دائمة، وذلك فى إطار التعاون الثقافى مع مصر والسودان.إن العلاقات الوثيقة التى تنميها بشكل تقليدى الدراسات بين الدول المختلفة، مهما كانت طبيعة العلاقات الدبلوماسية بينها، تؤخذ فى الاعتبار للصالح العام. وفى فرنسا فإن مساهمة لجنة التنقيب عن الآثار التابعة لوزارة الخارجية فى مساعدة بعثات التنقيب مساهمة هامة تتناسب تماما مع الاحتياجات.

وبعيدا عن تمويل البعثات التقليدية، تتفاوض هذه البعثات مع مصر والسودان فى كل أنواع العقود التى تختلف من بلد إلى آخر والتى تتعلق مثلاً بالمنح الدراسية وأشكال التعاون وخاصة فى مجال إصلاح وترميم الآثار. هكذا قامت بولاندا بالاشتراك مع مصلحة الآثار المصرية بترميم معبد حتشبسوت فى الدير

البحرى، وتشرف فرنسا بالاشتراك مع مصر على أعمال التنقيب الهائلة فى الكرنك. إن أعمال التنقيب وإدخال التحسينات على المواقع وتعريف السياح بها، وإدارة عروض الصوت والضوء والاستفادة من الآثار القديمة لعمل احتفالات ثقافية، تقديم أوبرا أو حفل موسيقى أو باليه أو مسرح مثلا، إن كل هذه النشاطات يتم الاتفاق عليها من خلال الطرق الدبلوماسية بمساعدة علماء المصريات أحيانا.

ويمكن الاستعانة أيضا فى هذه المجالات بشبان يؤدون الخدمة العسكرية أو خبراء مدنيين للقيام بخدمات فى هذه المراكز والمعاهد والبعثات الثقافية أو العاملة فى الآثار، بعضهم مهندسون أو مساحون، وبعضهم يعملون فى ترميم الآثار أو فى المحاجر وأحيانا دارسون متقدمون فى علم المصريات. إن السفارات بالطبع قريبة من مواقع العمل، فهى تحاط علما بالمشروعات التى ترغب مصر أو السودان فى تنفيذها ثم تعمل بعد ذلك مع علماء المصريات على تحقيقها. ويتراوح الدور المباشر لسفارات هذه الدول فى مدى المساهمة فى العمل وفقا لمدى ما توفره كل دولة من علماء الآثار العاملين فى التنقيب الدائم ووفقا لقدراتهم العلمية. ولكن فى نفس الوقت يحقق التعاون ثمارا أكثر عندما يكون لهذه الدول معاهد متخصصة فى التنقيب عن الآثار.

ولا تتعامل الدول المختلفة دائماً بصورة ثنائية مع مصر والسودان ولكنها تتعاون أحيانا من أجل تنفيذ عمليات خاصة. لقد

شجع اليونسكو فى مرات كثيرة فى الماضى ونسق عمليات هائلة فى الترميم أو إنقاذ الآثار فى وادى النيل. وتم الاتفاق على أشهر هذه العمليات بمناسبة بناء السد العالى، وكان الهدف دراسة المواقع ونقل آثار النوبة المعرضة للغرق فى مياه بحيرة ناصر. وكانت هذه الإنجازات متعددة ومتنوعة وأشهرها تفكيك المعابد التى تم نقل بعضها فى النوبة بعيدا عن المياه والأخرى إلى متاحف العالم جميعا.

وحديثا عندما واجهت جزيرة جزيرة فيلة شمال السد العالى نفس المشكلة، فقد تم عزلها عن المياه عن طريق إقامة سد مؤقت حتى يمكن دراسة كل الآثار الموجودة هناك. وقد تم تفكيكها وبعد ذلك تمت أعمال تنقيب وصلت حتى منطقة الصخور مما أدى إلى الكشف عن كتل حجرية تنتمى إلى آثار مختلفة كانت قد اختفت منذ زمن بعيد. وفى النهاية تم تجميع الأجزاء المعمارية على الجزيرة المجاورة "أجليكيا". وتقوم مجموعات هائلة من السياح بزيارة هذه المنطقة الأثرية كل يوم، ويشاهدون عرضا ليليا يحكى لهم تاريخ هذه المناطق. وأثناء الخريف وبداية الربيع سنة ١٩٨٩ تمت أعمال استطلاع أولية فى منطقة الشلال الرابع قامت بها مصلحة الآثار فى السودان وبعثتان فرنسيتان تحت إشراف "جان ليكلان" وذلك بسبب مشروع إقامة سدّ جديد أعلى من هذه المنطقة.

ولا يحصر اليونسكو نفسه فى التكفل بمشروعات إنقاذ الآثار، فقد اتخذت على سبيل المثال خطوات فى سبيل تأسيس معهد لدراسات حوض المتوسط فى الاسكندرية تحت ظله.

٥ - الأشكال الأخرى من التمويل والرعاية

تتخذ المساهمات الخاصة وشبه الخاصة فى علم المصريات أشكالا بالغة التنوع، تبدأ بالمساعدات ذات الطابع الإعلانى حتى المساعدات المنزهة عن أى غرض، سواء كانت من أفراد أو جماعات، ولكنها تحتل مكانا متواضعا أقل بكثير من المكان الذى تحتله المساعدات التى تقدم إلى الرياضة والفنون على سبيل المثال، وذلك لأسباب من المفيد أن نحاول تحليلها. فإذا كان عدد المغرمين بعلم المصريات ليس ضئيلا، فعلينا أن نعترف أن هذا الفرع من الدراسات لا تسلط عليه الأنوار إلا قليلا، مثلا عند اكتشاف مقبرة ملك أو أمير لم تمسسها يد، أو اكتشاف عشرات التماثيل الجميلة السليمة، كما حدث فى السنة الماضية، أو عند إقامة معرض للحلى. وهذا هو السبب فى أن العناصر الطموحة التى تقدم الأموال تمتلكها النزعات المتسرعة فى البحث عن طريق للوى الحقائق حتى تتلاءم مع مصالحها التجارية أو خيالاتها فى مجال الثقافة.

وتهدف عمليات التمويل إلى ترويج سلعة أو شركة من الشركات، وذلك عبر استخدام صورة شخصية أو نوع من

النشاط ذى شعبية كبيرة. إن هذا التعريف قابل للتطبيق فى علم المصريات وخصوصا فى مجال الآثار المصرية القديمة. لقد مولت بعض ماركات السيارات أو المشروبات الأمريكية والأوروبية أو اشتركت فى تمويل عمليات استكشاف فى مصر بتقديم الأموال أو المواد المختلفة. فكان علماء الآثار يرتدون قمصانا عليها إعلانات ويجذبون الأنظار إلى ماركات سياراتهم المهيأة لكل أنواع الطرق فى جولاتهم الإعلامية ويقومون بتوجيه الشكر إلى ممولیهم الذين يتكفلون أنفسهم بإذاعة أخبار هذه الأحداث فى الصحافة بالطريقة التى تحلو لهم .

وبين التمويل بغرض الدعاية والرعاية المنزهة عن هذا الغرض، هناك رعاية الشركات، وعلى رأسها الشركات التى تعمل فى مصر وتقدم لعلماء الآثار مساعدة فى صورة شروط ممتازة. ويجدر بالذكر هنا ما تم طيلة سنوات عديدة بين إحدى شركات البترول الفرنسية والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة من أجل التنقيب عن مناجم الكبريت فى جبل الزيت القريبة من البحر الأحمر ونشر أعمال هذا التنقيب. وكان قد تم تحديد هذه المواقع الأثرية أثناء عمليات التنقيب الجيلوجى التي قامت بها الشركة، ثم أجرت التنقيب الأثرى الذى تم تحت الإشراف العلمى لفريق من المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بمساعدة مالية وعملية من الشركة البترولية التى دعمت أيضاً نشر أعمال التنقيب.

وتساهم أحيانا بعض البنوك وشركات الطيران والشركات المنافسة ماليا بتقديم المنح الدراسية لهذا المشروع أو ذلك...الخ. وتقدم بعض الشركات هبات على صورة معدات وسيارات قبل أن تغادر مصر. ولكن «الرعاية التكلونوجية» هى أكثر المساهمات فعالية لأنها فى صالح الطرفين، فعلماء الآثار فى حاجة فى أغلب الأحيان إلى تقنيات غالية الثمن فى عمليات التنقيب والترميم وهذه الأجهزة محدودة الانتشار، والشركات التى تتاجر فى مثل هذه الأجهزة تبحث عن تطبيقات جديدة لها وتحبذ الدعاية التى يمثلها اكتشاف رائع أو إجراء أعمال صيانة وترميم لبعض الآثار المهددة بالدمار. ولقد أحسنت هيئة الكهرباء الفرنسية عندما جهزت معملا للتحليل والترميم فى الاسكندرية واشتركت فى عمليات تنقيب كثيرة مختلفة بانتظام حققت نجاحا فى أماكن كثيرة مثل سقارة على سبيل المثال.

إن لهذا النوع من المساعدة مستقبل باهر، ولكنه ليس النوع الوحيد الفعال. وتصبح الهبات الفردية مشجعة أحيانا، وذلك عندما يكون المولون مجردين حقيقة من المصالح الذاتية، متفهمين للأهداف العلمية للأبحاث التى يساندونها. ومن سوء الحظ نجد فى كل البلدان بعض أصحاب الثروات الباحثين عن الإثارة الذين يحاولون أن يجعلوا من البحث عن أثر لوناً من المطاردة بحثا عن كنوز أو إلى مظاهرات أيدلوجية مغرضة. ولهذا يجب أن يكون عالم المصريات متيقظا إلى أقصى حد فى هذا الصدد، وأن يكون

لديه الشجاعة فى رفض هذه الأشكال من الضغوط مهما كانت العروض سخية. ما إن يتم الاتفاق على صفقة رديئة حتى يصبح صعبا أن يستعيد العالم استقلاله العلمى الذى بدونه يصبح بشكل سريع مشاركا فى خطط غير شريفة.

وقد يكون هذا السرد دافعا للاعتقاد أن من السهل الحصول على مساعدات فنية ومالية، ولكن هذه المساعدات - إذا لم يتوفر عنصر المصادفة السعيدة - لا يمكن الحصول عليها إلا بعد محاولات متعددة عقيمة وغالباً ما تمنح لفترة قصيرة. وفى نفس الوقت توجد طرق لسد العجز فى الاعتمادات الناقصة لا تلعب فيها المصادفة دورا كبيرا، وتتمثل فى المؤسسات الخاصة والروابط التى لا تبحث عن ربح والتى تستند على المجالس الإقليمية والوحدات المحلية... الخ. إن الهيئات الخاصة مبنية بالتحديد على فكرة تشجيع الأبحاث الهامة المختلفة، كما أن الاعتمادات المالية أو المنح الدراسية تقررها هيئة تحكيم أو أشخاص لهم كفاءتهم وفقا للمعايير التى تستخدم عند توزيع الاعتمادات العامة. أما المساعدات التى تمنحها بعض المجالس الإقليمية والهيئات المحلية تقرر هى الأخرى عن طريق ممثلى الجامعات فى أغلب الأحيان، ولكن لا يمكن تجاهل دور أصحاب القرار السياسى وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمشروعات ثقافية محلية كالمؤتمرات والمعارض مثلا أو مشروعات أخرى ذات مردود محلى.

أما الجمعيات ذات الهدف غير الربحي، فهي بمثابة وسيلة لعالم المصريات للوصول إلى الجمهور الذى تخاطبه هذه الجمعيات مما يعطيه فرصة الحصول على مساعدة مالية إضافية ملموسة لأعمال يقوم بالمساهمة فيها آخرون، وفرصة تقديم أعمال أصيلة إلى جمهور من الهواة فى آن واحد. وترتبط بعض هذه الجمعيات بمركز جامعى أو بعثة من بعثات الآثار أو برنامج محدد فى علم المصريات، وتزود أعضاءها بالبيانات عن طريق الاجتماعات والنشرات، وأحيانا عن طريق مجلات أكثر تخصصا، وتنظم رحلات ومحاضرات. وبعض هذه الجمعيات مهمتها الأساسية التعريف بعلم المصريات وتحسين الثروات الإقليمية (المجموعات الأثرية وتحف البحاثة المشهورين ومراكز الوثائق) وتكوين متاحف أو مكتبات .

٦ - الأكاديميات وجمعيات العلماء

ليست وسائل التدعيم المقدمة من المؤسسات والأفراد والدول لمراكز البحوث ظاهرة خاصة ينفرد بها علم المصريات. على العكس يمكن أن نشير إلى المكانة المتواضعة التى يتمتع بها علم المصريات فى هذا الصدد. ولهذا فرغم ما يتمتع به من نفوذ مما يضفى عليه اهتماما عاما يحسده عليه الزملاء الذين ينتمون إلى فروع أخرى من الدراسات، فمن الضرورى الالتجاء كل سنة إلى كل أشكال المساعدات المادية والمالية الموجودة حتى يمكن رسم

سياسة فعالة. إن عددا قليلا من المشروعات يمكن أن يتحقق دون مساعدات مالية مشتركة، وتفرض مثل هذه الشروط تنظيما مثقلا بالمهمات ومضاعفة فى عمل الملفات والتقارير .

وليست الوسائل المالية هى الشغل الشاغل الوحيد لعلماء المصريات. فرغم قلة عدد مراكز التعليم والأبحاث بالمقارنة بأعداد الهواة من كل الألوان، فهناك مجال لعمليات إغراء سواء كانت جادة أو منحرفة. ومن حيث المبدأ لا يستطيع أحد أن يباشر الأبحاث الميدانية إلا إذا كان على تكوين علمى صالح ويستند إلى ضمانات مؤسسة معترف بها. ولكن هذه الاحتياطات الأولية التى تهدف إلى حماية مصر من المبادرات المغامرة التى يقوم بها بعض الغشماء الباحثين عن مجد زائف، هذه الاحتياطات لا تكفى فى بعض الأحيان. إن بعض المحتالين يحدث أنهم أحيانا ينجحون فى خداع مسئول هنا أو هناك، وينسى هذا المسئول أن يستشير أصحاب الشأن من العلماء المؤهلين وهو واقع تحت تأثير المغامرة، معتقدا فى سره أنه سيحقق نجاحا أسرع منهم. وتهتم وسائل الإعلام بالنشر والإعلان لأن نجمنا الجديد لا يريد لمشروعه أن يقبع فى الظلام. وتدخل مصر فى معارك دبلوماسية عندما ينكشف الخداع بكل سوقيته .

وفى خلال كل هذه المشاكل التى تدور حول مدى أصالة هذه الأعمال تقوم الجامعات ومراكز الأبحاث والمتاحف بعملية فرز وترشيح. ولكن التحذيرات بالغة الحسم والقطع لا يصبح لها وزن

حاسم أمام إصرار معين أو مواهب أصحاب الألسنة المعسولة. وهنا تتدخل الأكاديميات. إنها عامل ضمان للحفاظ على القيم العلمية وتحتفظ بسلطة كافية على كل المستويات، للدفاع عن الأعمال الجادة ولكشف المتلاعبين. إنها تشارك فى هيئات عديدة وتحتل مكانة حاسمة فى إعداد البرامج الكبرى، وتساعد مؤسسات فى فرنسا والخارج، ويتم تعريفها بالاكتشافات فى مراحلها الأولى وتمنح مساعدات وجوائز لكثير من الفائزين كل سنة. وتحتل بعض جمعيات العلماء القديمة، رغم أنها لا تملك تأثيرا يمكن مقارنته بتأثير الجامعات، بمكانة قريبة فى نظر الباحثين. وتقوم على قدم المساواة بهذه المهام أو جزء منها. وتكرس بالإضافة إلى ذلك جهودها تماما لعلم المصريات. هناك مثلا جمعية الاكتشافات فى مصر Egypt Exploration Society التى تقرر مصائر أعمال الآثار التى تقوم بها انجلترا فى مصر والنوبة منذ أكثر من قرن من الزمان. لقد أعطت هذه الجمعية التى ترجع نشأتها إلى إصرار بعض الأشخاص وإلى مساعدات أنصار الآداب والفنون والهواة الفرصة إلى عالم الآثار "ف. بترى" F. Petrie ليضع أساس عمل ميدانى علمى على ضفاف النيل منذ سنة ١٨٨٣، فى مرحلة كانت السلطات الفرنسية والمصرية تصارع سويا من أجل المحافظة على الآثار. لقد قدمت هذه الجمعية منذ البداية الخدمات لصف طويل رائع من علماء الآثار الذين لا يقلون شأناً عن سلفهم.

الفصل السادس
التراث المصرى والسودانى والمجتمع الدولى

تعى مصر والسودان الآن جيدا أن أراضيهما تحوى شواهد تاريخية تعود إلى ماضيهما المجيد، وتيسر لهما أيضا فرص الحياة اليوم. وتشرف على إدارة هذا التراث الفريد مؤسسات مصرية وسودانية تساعدها وتشاركها مؤسسات أجنبية وهيئات دولية. ويمثل الوضع الحالى مرحلة تقوم فيها السلطات المصرية والسودانية بوضع سياسة تتجاوب مع دواعى حماية الآثار ودراستها وتحسين أوضاعها.

١ - هيئة الآثار المصرية ومصلحة الآثار السودانية

لم يأت علم المصريات إلى الوجود تلقائيا فى لمحة قصيرة، بل يمكن القول إنه منذ الأيام القديمة بدأ الرحالة يعتبرون مصر موضوعا للدراسات. وخلال قرون طويلة أبدى الحجاج المسيحيون اهتماما بالأراضى المقدسة فى مصر وبالمدن التى ذكرها الكتاب المقدس ثم بالآثار الفرعونية أو اليونانية والرومانية الأكثر شهرة الموجودة فى شمال مصر. ومنذ نهاية القرن السابع عشر امتد الاهتمام بالآثار إلى مصر العليا. ونستطيع ان نتتبع

البـدايات الأولى للبـحث عن الآثار فى كتـابات هؤلاء الرحـالة. إن اكثر الرحلات إثارة للدهشة وأقدمها فى نفس الوقت هى الرحلة التى قام بها "اثناس كيرشر Athanase Kircher". غير أنه كان لا بد أن ننتظر حتى القرن التاسع عشر حتى تبدأ الأبحاث العلمية الحقيقية التى يهدف بعضها إلى تسجيل الشواهد الأثرية ويهدف البعض الآخر إلى فهمها. ولقد تصارع الفرنسيون والإنجليز حول هذه النتائج كما تصارعوا حول السيطرة على مصر. وكان على "چوفروا سانت هيلر Geoffroy Saint-Hilaire" باسم زملائه أن يهدد بتدمير الوثائق التى كانت تعد لاستخدامها فى موسوعة "وصف مصر" حتى يتمكن من المحافظة عليها فى مأمن من الآخرين، متخليا عن الآثار مقابل ذلك، بينما سعى "و. ر. هاملتون W. R. Hamilton" إلى إصدار مجلد من جزأين سماه "ايجبتياكا Aegyptiaca" قبل صدور موسوعة "وصف مصر" الرائعة بعدة شهور.

ولم يكن هذا التنافس سوى المقدمة لمطاردة عنيفة للحصول على تحف أثرية، قام بها قناصلة الدول الأوروبية المختلفة الممثلة فى القاهرة، واستمرت هذه المطاردة قرابة قرن حتى عين الخديوى "اوجست ماريت Auguste Mariette" مديرا لأعمال الآثار فى مصر وتم تزويده بمعاونين إداريين واعتمادات للتشغيل ومركب لتنقلاته. كان عليه أن يقوم بترميم المعابد وحصر كل الآثار والتحف التى يمكن ان تتعرض للنهب ونقلها إلى العاصمة

حيث شكلت الرصيد الأول لمتحف قومى. وفى تلك الاثناء بدأ علم المصريات الحقيقى يمارس وجوده مع أعمال واكتشافات "جان فرانسوا شامبليون" الذى استطاع أن يصل إلى حل طلاسم الكتابة الهيروغليفية. وتقدمت على قدم المساواة وبدرجة ملحوظة أعمال الحفريات، إذ لم يعد البحث عن الآثار الجديدة هو الدافع الأوحد بل دراسة هذه الآثار أيضا.

بيد أن هذه المتطلبات العلمية تعثرت فى ظل انعدام زملاء أكفاء. "لماريت"، وقد لحق به "ت. ديفيريا T. Devéria" الذى قبل أن يعمل دون مقابل. ويرجع الفضل إليهما فى الالتزام بأعمال البحث والنشر حتى توفى الأول سنة ١٨٧١ والثانى سنة ١٨٨١. وتدل هذه الواقعة على أن نقص الموارد المالية والبشرية ليست مشكلة حديثة!. وإذا كان أسلوب "ماريت" فى إدارة أعمال الآثار قد تميز ببساطة أكثر من أسلوب المسئولين المصريين الحاليين، فقد غطى المجالات الأساسية فى العمل مثل تسجيل المواقع والآثار وحمايتها والتعريف بها ودراستها وتعريف الجمهور بهذه التحف...إلخ.

غير أن مصلحة الآثار المصرية بدأت شيئا فشيئا تكشف عن أهميتها حتى أصبحت الآن إدارة ضخمة تضم عشرات الآلاف من الموظفين، فهناك المدير العام والمديرون وكبار المفتشين وأمناء المتاحف والمفتشون والمهندسون والمرممون والفنيون والسائقون والعمال والحراس ...الخ. ولقد أصبحت الإدارة مصرية منذ

سنة١٩٥٢، وأصبح اسمها منذ سنة ١٩٨٠ هيئة الآثار المصرية، وقد أدى التطور فى علم المصريات فى العالم كله ونمو السياحة إلى تزايد ضخم فى أعمال الهيئة عما كانت عليه سابقا. وإذا كانت هذه الهيئة منفصلة تماما عن الجامعة إلا أنها تضم المتاحف فى مصر كلها ومركز التوثيق والأبحاث الخاص بمصر القديمة ومقره القاهرة. وتتسم هذه الهيئة ببنائها الهرمى وتشرف عليها لجان تضم بين أعضائها الجامعيين.

هيئة الآثار المصرية تابعة لوزارة الثقافة وتبين هذه التبعية الإدارية اتجاه الهيئة الرئيسى، ألا وهو حماية تراث الآثار. فتتضامن الهيئات الأجنبية فى مصر جزئيا فى هذا العمل، وهى تضم الكثير من العاملين فى هيئة الآثار. إن أعمال التنقيب هى واحدة من النشاطات الرئيسية التى يعمل فيها ألفان من المفتشين. وهناك إدارة للنشر تصدر منذ سنة ١٩٠٠ دورية تدور أساسا حول الأبحاث الميدانية واسمها "حوليات مصلحة الآثار فى مصر" ومطبوعات أخرى على مستوى جيد من بينها "الكاتالوج العام لمتحف القاهرة". ولقد ظهرت فى الفترة الأخيرة مشاكل متعلقة بالطباعة دفعت مصلحة الآثار إلى اللجوء إلى مطابع أجنبية وبشكل خاص مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة. أما مركز الوثائق فقد توصل إلى إصدار مجلدات مطبوعة فى مطابعه الخاصة وبشكل منتظم. ويختلف تماما الوضع فى السودان، فمصلحة الآثار أكثر حداثة من

زميلتها فى مصر، ولا يعمل فيها سوى بضعة مئات من الموظفين من بينهم قرابة عشرين مفتشاً يتقاسمون العمل. ولا يعنى هذا أن السودان أفقر من مصر فى مواقعه الآثرية بقدر ما يعنى أن المواقع الآثرية فى السودان لها طبيعة أخرى، وهى أقل إثارة للدهشة والإعجاب، غالبيتها تنتظر الكشف عنها. وفى الواقع لم تتم أعمال الكشف إلا فى مناطق محدودة بسبب صعوبات النقل والتموين. ويقلل عدم الاستقرار السياسى الذى زادت حدته منذ بضع سنوات من حماس البعثات الأجنبية للعمل هناك. ويتراوح عدد هذه البعثات بين العشرة والخمسة عشر وفقا للسنين المختلفة. وتحتفظ فرنسا بقسم دائم فى هيئة إدارة الآثار.

٢ - البعثات والمعاهد الأجنبية فى مصر

إذا كانت سياسة البلدان المختلفة المرتبطة بالأبحاث عن مصر القديمة قد تطورت منذ نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنها لاتزال تعانى أحيانا من آثار الماضى. لقد كانت فرنسا أيام "ماريت" تحتكر تقريبا أعمال الآثار، وقد أنشأت بناء على مشورته هيئة سميت أولا "المدرسة الفرنسية فى القاهرة" على غرار مدرستى روما وأثينا الفرنسيتين قبل أن تصبح سنة ١٨٩٨ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة". ولم تكن مساهمة هذه القاعدة فى تنفيذ وتطوير أوجه النشاط فى مجال المصريات فى وادى النيل شيئا ضئيلا، سواء كانت هذه العمليات تحت الإشراف المباشر

للمدرسة الفرنسية أو متميزة عنها. غير أن بلدانا أخرى اتبعت بشكل سريع المثال الذى قدمته فرنسا، وأوجدت كل أنواع المؤسسات التى تختلف فى التنظيم والأهمية والدور وفقا لاهداف كل منها.

كانت هذه المدرسة فى بدايتها تضم قسمين، يركز القسم الأول على أعمال التنقيب والآثار وفقه اللغة المصرية القديمة، ويركز القسم الثانى على المدنيات واللغات الشرقية غير المصرية القديمة. وتضم المدرسة ستة من الطلبة وعددا غير محدود من الأعضاء. وبعد قرارى سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٣ أصبح الطلبة إما مقيمين بشكل دائم أو أعضاء علميين. وتركزت الأهداف فى مصر والمناطق المجاورة على طول كل مراحلها التاريخية. لقد استطاع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بفضل مطبعته التى تعود إلى سنة ١٩٠٠ أن يصدر حتى سنة ١٩٩٠ حوالى سبعمائة مجلد تنقسم إلى مجموعات ودوريات متعددة. إن العمل الذى تم فى تجميع النصوص المختلفة خلال قرن من الزمان لهو عمل فريد وخاصة فى مجال نصوص مرحلة البطالمة. و لقد كشفت أعمال الحفريات عن مناطق أثرية غنية وهامة ساهمت فى إلقاء الضوء على تاريخ مصر، والدليل على ذلك آثار دير المدينة فيما قبل وآثار "بلاط" (١٢) الحديثة. وتؤثر دائما أعمال المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة على المعاهد الأخرى والبعثات المؤقتة وتحفزها للعمل.

ويمثل الالتحاق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية أمنية عزيزة عند أغلبية الدارسين الفرنسيين المتقدمين فى علم المصريات وفى الدراسات الاغريقية والقبطية والعربية. ويتم التعيين لمدة سنة قابلة للتجديد مرتين أو ثلاث مرات، مما يتيح لهم فرصة نادرة ليتعرفوا على البلد واللغة وأن يعقدوا علاقات عمل وصداقة ويضفوا على أبحاثهم بعداً عملياً. وهم يستمتعون بحرية كبيرة فى العمل مستفيدين من المساعدة الفنية غير العادية، وتتاح لهم إمكانية المشاركة فى أعمال الحفريات وفى كل أنواع البرامج العلمية التى يقوم بها المعهد. ويتم تشجيع كل المشروعات الفردية والجماعية، وتنشر مقالاتهم وأعمالهم فى مجموعات المعهد. وتحفزهم الأجهزة الحديثة التى يحتفظ بها المعهد إلى أساليب فى المعالجة بالغة التميز. إن تعدد البعثات التى يستقبلها رجال المعهد كل سنة واستقبال الدارسين الأجانب أصحاب الإجازات العلمية وتعاون المعهد مع مصلحة الآثار المصرية ومع الفرق الدولية يساهم فى إعطائهم سهولة كبيرة فى التعرف على زملاء من كل البلاد.

أما معهد الآثار الألمانى، وهو أحدث بعض الشيء من المعهد الفرنسى، فقد تأسس تحت اسم "المعهد الامبراطورى الألمانى للآثار المصرية القديمة "وقام بتأسيسه "ادولف ارمان" سنة ١٩٠٧، ثم أعيد تأسيسه مرتين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٥٥ بعد كل من الحربين العالميتين. ويقوم هذا المعهد الآن بالعديد من النشاطات الشبيهة بنشاطات المعهد الفرنسى. وبالإضافة لمنصب

المدير والمدير المساعد، هناك الكثير من المعاونين وأصحاب المنح الدراسية الذين ينجزون برامج محددة للمعهد بمساعدة جهاز فنى وإدارى. إن أعمال التنقيب التى تجرى فى "إلفنتين" و "بوتو" "ومعبد" سيتى الأول" الجنائزى تعتبر نموذجية وتساهم فى تغيير صورتنا ومعارفنا عن مصر القديمة. بيد أن المعهد الألمانى لا يحصر نفسه فى مصر الفرعونية. إن أبحاثه المعمارية عن الكنائس، على سبيل المثال، تغطى جزء هاما من التراث الأثرى المعروف فى هذا المجال. ومنذ سنة ١٩٣٠ يصدر المعهد مجلة ومجموعات متعددة من المنشورات التى تطبع فى ألمانيا.

ويرجع إلى المعهد الألمانى بصورة ما الفضل فى تأسيس المعهد السويسرى للتاريخ والعمارة القديمة، لأن مديره الأول "لودفج بورشارد Ludwig Borchardt" هو الذى حصل على مرسوم تأسيس هذه الهيئة الخاصة عند اعتزاله. واستمر المعهدان على علاقة وثيقة ويتعاونان فى مجالات كثيرة ومشروعات مشتركة. أما الولايات المتحدة الأمريكية فتمتلك مؤسستين، الأولى فى القاهرة "المركز الأمريكى للأبحاث فى مصر "والثانية فى الأقصر "دار شيكاغو" التابع للمعهد الشرقى بجامعة شاكاغو، ولكل من المؤسستين دورها الخاص: بينما يمارس المركز الأمريكى للأبحاث عمله بالاعتماد على جهاز دائم محدود العدد فى مساعدة البعثات فى كل مجالات الدراسة التى يقصدونها فى مصر، فيتخصص معهد دار شيكاغو فى مصر الفرعونية بشكل

عام فى إصدار دراسات متقنة ممتازة عن معابد منطقة طيبة بشكل خاص، ويحتفظ بمجموعة من علماء المصريات والمهندسين والرسامين، كما يستقبل أيضا ضيوفا من كل أنحاء العالم. وتنشر الدوريات والمجموعات المختلفة من الدراسات التى يصدرها المعهدان فى الولايات المتحدة.

ولقد تم إنشاء معاهد آثار أخرى فى القاهرة أو الاسكندرية. ومن أنشطها المعاهد النمساوية والهولندية والتشيكية والمعهد البولندى لدراسات حوض المتوسط. وتحتفظ بعض هذه المعاهد مثلها مثل المعهد الفرنسى والألمانى بمقار لأعمال التنقيب فى مناطق مختلفة من البلاد حيث يواصلون أعمالهم على المدى الطويل. وتتقدم البعثات الأجنبية العديدة العاملة فى التنقيب أو دراسة النقوش والنصوص المصرية القديمة بطلباتها كل سنة إلى اللجنة الدائمة لمصلحة الآثار المصرية، وهى الهيئة الوحيدة المؤهلة قانونيا للموافقة على امتيازات العمل سواء كانت أعمال تنقيب أو جمع بيانات أو أعمال ترميم، وهى فى مجموعها تزيد عن المائة طلب. ويصاحب أعضاء هذه البعثات فى ميادين العمل واحد أو أكثر من مفتشى هيئة الآثار، ويطلب من هذه البعثات أن تقدم تقريرا عن نتائج أعمالها الميدانية بعد انتهائها .

٣ - متاحف وادى النيل ومخازن هيئة الآثار

كان "ماريت" يعمل لصالح متحف اللوفر بموافقة السلطات المصرية، وقد استطاع القيام بهذه العمل بفضل التمويل الذى حصل عليه من المتاحف القومية فى المرحلة الأولى ثم الوزارة الفرنسية والمساعدة الدائمة التى كانت تقدمها أكاديمية المخطوطات والآداب. ولقد جلبت عليه نجاحاته فى مجال الآثار وحسن تعامله مع السلطات المصرية حقد وعدوانية جماعة المنقبين غير المرخصين وغيرهم من مهربى الآثار. إن اهتمامه المتزايد بحالة الآثار فى وادى النيل جعل منه شيئا فشيئا المدافع عن المصالح المصرية. وهكذا ولدت فكرة إيجاد مكان تعرض فيه مجموعة رائعة من التحف كان يقوم بتجميعها لحساب الخديوى سعيد. وقام بتقديم المشروع "فردنان دى ليسبس"، وتم الموافقة عليه. وبحكم وضع ماريت الجديد كمدير لمصلحة الآثار بدأت عملية التنفيذ.

وتم بناء المتحف الأول للآثار المصرية القديمة فى بولاق شمال القاهرة وهناك تم حفظ ستة آلاف وخمسمائة قطعة أثرية كان قد تم اكتشافها. وكان على ماريت أن يقنع باريس حتى تفهم أن هذه المبادرة ليست عملا منافسا لمتحف اللوفر بل تمثل التطور الطبيعى للأشياء. لقد أصبح ضروريا بوضوح أن تهتم مصر بتراثها، وأن تطمئن إلى أنها فى مأمن مضمون من كل ضروب

الطمع فى كنوزها. وفى هذا الإطار تم تعيين ماريت مديرا للآثار فى مصر ومتحف القاهرة. ولم يجنبه ولاؤه الدائم للخديوى المشاكل والمضايقات، وجلب عليه عدم رضى الإمبراطورة "أوچينى" ولم ينعم برضائها إلا سنة ١٨٦٩، بمناسبة الأعياد المترتبة على افتتاح قناة السويس.

ورغم التأخير المتكرر فى بناء المتحف ونقص الأموال المزمن وعمليات التدمير التى تسببت عن فيضان سنة ١٨٧٩ فقد أصبح المتحف حقيقة عندما توفى ماريت ودفن فى حديقته سنة ١٨٨١ . وقد أعيد بناء المتحف فى الجيزة أولا ثم فى ميدان التحرير حيث يوجد الآن ويضم مقبرة العالم الفرنسى ماريت. ويحتوى المتحف على كم هائل من القطع الأثرية إلى درجة أن المعروض منها للجمهور فى صالات العرض شيء ضئيل بالنسبة لما هو قابع فى المخازن. وبالإضافة إلى هذا يتراكم حصاد أعمال الحفريات المنجزة فى كل أنحاء مصر بشكل منتظم، ويتم نقلها إلى القاهرة لأسباب كثيرة. وتسبب هذه الثروة الأثرية بالطبع مشاكل بالغة الخطورة بتخزينها وتنظيمها. ولقد حاول أمناء المتحف المتوالين أن يحلوا هذه المشاكل بأساليب كثيرة.

ويدور المشروع الأخير حول اقتراح ببناء متحف جديد لا يعرض فيه سوى الأعمال الرئيسية فى متحف القاهرة التى يرغب السياح عادة فى مشاهدتها، بينما يتحول المتحف الحالى إلى مكان عمل للباحثين. إن هذا الحل يرضى رغبات واحتياجات كل

المجموعات صاحبة المصلحة. عندما يقل تكدس الأعمال الفنية عما هى عليه الآن يمكن أن يتم عرضها بصورة أفضل، ويصبح علماء المصريات أقدر على عمل حصر أو تحقيق أو تصوير لهذه الآثار التى سيتسع لها المكان الجديد. ولكن هذه التعديلات تفترض توافر أموالاً هائلة وتنظيما معقداً.

ويحدث الآن فى نهاية كل عملية تنقيب عن الآثار أنّ الأشياء المكتشفة لا تذهب إلا نادرا إلى متحف القاهرة. ويتم فى أغلب الأحيان تسجيلها ثم إيداعها فى مخازن تبنيها البعثات لهذا الغرض وفقا لقواعد أمن تحددها هيئة الآثار أو داخل مخازن هيئة الآثار. وتترك عادة المواد التى تعتبر غير بالغة القيمة، أى المواد غير المعرضة للسرقة مثل شقفات الخزف تحت رعاية علماء الآثار. ولكن لا بد من وضع الأختام على هذه المخازن سواء كانت تابعة للبعثة ألهيئية عند غياب المفتش المسئول أو فى نهاية موسم الحفر. وتخضع إعادة فتح هذه المخازن لإجراءات صارمة تستلزم تواجد عدد من المفتشين من بينهم كبير مفتشين، وهذا ليس شيئا سهل التحقيق. ولهذا فمن الأهمية بمكان أن لا يحس الإنسان برغبة فى الاستعجال أثناء إقامته فى مصر، خوفا من أن يعود إلى بلده دون أن يكون قد أنجز المهمة التى جاء من أجلها.

وهناك سياسة جديدة تقوم على أولوية إقامة متاحف إقليمية. إن دوافع هذه السياسة هى الاهتمام أولا بتحسين بعض المواقع

الأثرية، والرغبة ثانيا فى نقل السياح إلى عدد أكبر من المناطق السياحية عما كان يحدث من قبل. إن بعض هذه المتاحف موجودة منذ وقت طويل فى إلفنتين وأسيوط وطنطا والإسماعيلية وبورسعيد والإسكندرية، وقد تم حديثا تجديد أغلب هذه المتاحف والتحف معروضة فيها على أحدث أساليب العرض. وتم حديثاً بناء متاحف أخرى فى الواحة الخارجة وتانيس وفى الأقصر التى استفادت خاصة من خبرات أحسن خبراء المتاحف. وهناك مشروعات أخرى تحت الدراسة .

ويصعب أن ننهى العرض السريع عن المتاحف فى وادى النيل دون أن نذكر متحف الخرطوم الذى افتتح سنة ١٩٧١ . ويضم عناصر أثرية انتزعت من مواقع مختلفة مثل مروى وباسا، (١٣) و "كاوا" وخاصة من المواقع التى كانت مهددة بالغرق نتيجة مياه بحيرة ناصر مثل معبد حورس فى بوهن ومعابد سمنة ورسوم فارس والنقوش الصخرية التى من بينها نقوش جبل الشيخ سليمان وخلافه، هذا بالإضافة إلى عدد من التحف الثمينة كشفت عنها أعمال تنقيب قديمة.

٤ - الآثار المصرية خارج مصر

كان شراء القطع الاثرية فى مصر خلال القرن التاسع عشر شيئا يسمح به القانون مادام تحت إشراف السلطات المصرية. وبجانب هذه التجارة الرسمية، استمر التهريب يعيث فسادا، ثم

بدأ اتخاذ الإجراءات الرادعة ضده حتى زال تقريبا الآن. ولقد تقرر بشكل قاطع إغلاق محلات بيع الآثار فى مصر وكرس هذا القرار إجرام هذه الممارسات التى استمرت فترة طويلة. وسواء وصلت القطع الاثرية عن طريق مشروع أو غير مشروع فإنها تروّج فى العالم قيم الحضارة المصرية، سواء فى قطعها المعمارية مثل المسلات والمعابد التى استقر بها المقام هنا وهناك، أو مجموعات التحف العامة والخاصة قُدمت هبات أو اشتُريت أو سُرقت... كل هذه الشواهد والتحف التى سافرت إلى الخارج تمثل بشكل ملموس التراث الهائل الذى تركته هذه الحضارة الخارقة.

وليس شيئا جديدا أن يراود الإنسان الرغبة فى الاحتفاظ بشىء من البلد التى زارها، ويمكن القول أننا لا نجد من بين السائحين الذين زاروا مصر إلا عددا قليلا لم يحضر معه من هذه الرحلة إلى وادى النيل تمثالا صغيرا يمثل "أو شابتى"(١٤) أو جعرانا. ولم تغير القوانين الجديدة شيئا من هذه التصرفات التلقائية. وهذا هو السبب فى أن تجارة التحف المزيفة بدأت تحل محل التجارة فى التحف الأصيلة، رغم أنها يندر أن تكون متقنة الصنع. ويتظاهر التاجر النصاب أنه يقوم بتجارة غير مشروعة فينتاب السائح الذى يريد شراء هذه التحفة المزيفة إحساس بالفخر لأنه يعامل باعتباره أحد هواة الفن يسرع ويعرض تحفته الرائعة على أحد علماء المصريات الذى يضايقه غباء المشترى

وسوء نيته. وفى نفس الوقت تبيع بعض المحلات نسخاً للتحف الأصلية ولا ضرر من ذلك مادامت تباع على أنها نسخ.

وتستجيب المعارض الجوالة والمجموعات الأثرية الهامة لمقاييس مختلفة وفقا لمتطلبات أمناء المتاحف والمفوضين العموميين. وتنصب بعض هذه المعارض على جعل الجمهور يحس بالانبهار والدهشة والاغتراب، فيتم انتقاء ذكى للتحف وخلق أجواء من الغموض من خلال مؤثرات شرقية، بل ديكورات توهم بأجواء فرعونية. ويبحث البعض الآخر عن إرضاء العدد الأكبر من جمهور المشاهدين بعرض مستحب واضح، وفى نفس الوقت يعطى الفرصة للمتخصصين أن يتعرفوا على مجموع ما يعرضونه من تحف تقريبا. لقد نجح متحف المتروبوليتان فى نيويورك فى هذا التحدى بطريقة رائعة إذ أنه يقدم لرواده مسلكين، واحدا يعرض التحف المشهورة جدا والتى على درجة عالية من الصيانة الجيدة، أما الثانى فهو أقرب إلى معرض تعليمى لا يتردد فى عرض تحف ناقصة إذا كانت مثيرة للاهتمام أو فى عرض مجموعات أثرية فى إطار ظروف اكتشافها وغير ذلك.

إننا نجد الآن المعابد النوبية التى قدمتها مصر امتنانا للبلدان المختلفة التى شاركت فى الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبية داخل المتاحف المختلفة : معبد اليزيا(١٥) انتقل إلى متحف تورينو ومعبد دندور(١٦) إلى نيويورك على سبيل المثال. وقد تم وضع الخطط

لإعادة تجميع المبانى الهائلة التى تم الكشف عنها فى الماضى كما هو الحال مع قصر "مرنبتاح" القادم من منف والذى يعرض فى أجزاء منفصلة فى متحف الجامعة فى فيلادلفيا وذلك لأسباب تعود إلى ثقل الوزن وضخامة الأبعاد التى تفوق قدرات المتحف. ومن الممكن أن نذكر أيضاً "غرفة الأسلاف" التى كانت فى الكرنك، والمصطبة اللتين أعيد تجميعهما فى متحف اللوفر. ونجد الاهتمام بتجميع وحدات معمارية مترابطة فى متاحف كثيرة.

وعلى العكس فإن تقديم التماثيل الضخمة وتماثيل أبى الهول والمسلات كهبات إلى رؤساء الدول، أو نقلها وإقامتها فى الميادين الكبيرة فى القاهرة، ممارسات تساهم فى تشتيت تشكيلات أثرية فى أماكن متعددة بينما كان المرء يتمنى أن يراها ويتأملها فى مواقعها الطبيعية. ويدفع كل هذا الناس إلى التساؤل فيما يقع وراء هذا التشتيت. مع أنه من غير المجدى محاولة تقدير السياسات التى اتبعت فى الماضى إلا أن سياسة تبادل قائمة على المفاوضة بين مصر والبلدان التى تمتلك أجزاء أثرية من نفس الوحدة، من شأنها أن تؤدى إلى تحسن معقول فى الوضع الحالى.(١٧)

٥ - الآثار المصرية والسياحة

تواجه هيئة الآثار المصرية كل يوم مشاكل خطورتها من لون آخر نتيجة تزايد السياحة بدرجة لا تتلاءم على الإطلاق مع

الهيكل العام فى مصر أو مع إمكانيات استقبال هؤلاء السياح فى المواقع الاثرية ومناطق الآثار. إن تلك المناطق والمواقع التى كنت لا ترى فيها سوى بعض المتجولين القلائل المنعزلين مرة أو مرتين فى الأسبوع تستقبل الآن كل يوم عشرات الحافلات السياحية المكتظة، وتعانى المقابرالصغيرة كثيرا من جراء هذه الزيارات التى لا تنتهى، فالسياح أصحاب النوايا الطيبة يحتكون بالرسوم التى عبرت ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف سنة دون أن يصيبها شيء.

ولا يرضى هذا الوضع المنذر بالخطر أحداً، لا المصريين الذين يشاهدون تراثهم يتفتت أمام أعينهم، ولا علماء المصريات الذين يضايقهم كثيرا الخسائر التى تلحق بكل ما تعبوا فيه، ولا السياح الذين يتعرضون لأوضاع يصبح فيها رؤيتهم للآثار صعبة جدا حيث يصبح على الانسان ان يحشر رأسه بين رأسين أخريين ليتمكن من رؤية الآثار التى جاء من أماكن بعيدة جدا ليتملى روعتها والتى من أجلها يقف تحت الشمس فى طوابير طويلة. إن الاستغلال السياحى لوادى النيل ظاهرة اجتماعية كما أنها مصدر ربح كثير. ولكن ليس من الضرورى أن نعود إلى الوراء لكى نؤكد سرعة تدهور هذه الآثار المتروكة فى أيدى حشود ينقصهم بشكل عام التقدير السليم. ولكنهم ليسوا الوحيدين المسئولين عن هذا الوضع، فما أن تخرج هذه الآثار من الأرض حتى تتعرض لهجمات الكثير من العوامل المدمرة مثل

الرطوبة والجفاف وتناوب هذين العاملين وازدياد الأملاح والعواصف الرملية والمطر فى الشمال وتلوث الجو إلخ. وتحاول مصر أن ترد على هذه التهديدات الخطيرة بكافة أنواع الحلول. وتمثل السياحة جزءا أساسيا من اقتصاد مصر، فالحد منها يصبح عملية انتحارية لا يتحمله الوضع الآن. وتتجه السياسة المتبعة إلى تنظيم استقبال الزائرين، مع الاهتمام بحماية المناطق المعرضة للخطر والزوال، وافتتاح عدد أكبر من المواقع السياحية مما يؤدى إلى توزيع هذه الأعداد الكبيرة من السياح التى تمثل خطورة على الآثار، على عدد أكبر من المناطق الأثرية الجديدة. وكانت مضاعفة المراكب السياحية على النيل حلاً لا بأس به، فقد سهلت هذه الرحلات النيلية للسياح المحظوظين أن يصلوا بطريقة لطيفة إلى المعابد الموزعة على ضفاف النيل. ولكن النيل قد تشبع الآن بهذه الفنادق العائمة ولابد من اتخاذ إجراءات جديدة.

ويتركز الجهد الآن فى تحسين واستغلال المواقع الأقل شهرة من طيبة وسقارة. ولكن هذه المواقع الجديدة ستصبح فى جمال وغنى المواقع القديمة بعد إعدادها وتيسير الزيارة إليها، خاصة بالنسبة لأعداد متزايدة من السياح الذين يزورون مصر للمرة الثانية أو الثالثة ويرغبون فى اكتشاف أشياء مستحدثة، مصر القبطية أو الإسلامية أو الصحارى مثلا ... وهناك طائفة أخيرة من السياح الذين يأتون لقضاء إجازاتهم، ولا تشغلهم كثيرا الأحجار

القديمة بل يبحثون عن مراكز جديدة لقضاء وقت الفراغ وممارسة رياضة الغوص تحت الماء عند شواطىء البحر الأحمر. وتؤدى هذه الأهداف السياحية الجديدة إلى تقليل الزحام على المناطق السياحية التقليدية ذات المرتبة الأولى، دون أن تفرض رحلات مجهدة على أناس لا يهمهم زيارة المناطق الأثرية ويفضلون نشاطات ذات طابع جديد.

٦ - مجالات التعاون الدولى

حتى يمكن الوصول إلى حماية هذه المواقع الأثرية وإعدادها لجماهير الراغبين فى التعرف عليها، تطلب مصر من البعثات إعداد برنامج لصيانة الآثار التى أمكن رفعها وذلك عند نهاية العمل. وهناك ضرورة أيضا لوضع خطط دولية لانقاذ الآثار من وقت إلى آخر، عندما يحدث على سبيل المثال أن تتعرض منطقة من المناطق لتهديد عاجل فى فترة قصيرة. وبالإضافة إلى هذه المشاركات العادية أو غير العادية تقيم مصر أشكالا من التعاون المشترك بين المصريين والأجانب فى مواقع هامة عديدة. إن المركز الفرنسى المصرى لمعابد الكرنك مثل متقدم جدا على هذا الاتجاه. فالكرنك أحد المواقع التى تتمتع بشعبية كبيرة، ولهذا فهو من أكثر الأماكن حظوة بالزيارة فى وادى النيل. إن إدارة هذه المنطقة الأثرية على كل المستويات - الدراسة والنشر والترميم وإعادة البناء وأعمال التنقيب وتصميم المنطقة لاستقبال

السياح... الخ - بمثابة تحد مستمر. وتعطى هذه الاتفاقية السارية منذ أكثر من عشرين عاماً فكرة عما يستطيع أن ينجزه فريق مشترك دائم معهود إليه هدف محدد، رغم عوامل الضغط الهائلة فى موقع من أكبر المواقع الأثرية فى العالم.

إن النموذج المتمثل فى الجمع، على قدم المساواة، بين المصريين والأجانب قادر على إعطاء نتائج رائعة فى كل مجال يمكن فيه تطبيق هذا النموذج، ويسمح لمصر أن تتبنى سياستها الخاصة بها فى مجال الآثار، مستفيدة من آراء المتخصصين الحقيقيين ومساعدتهم المادية. وتمثل الاستفادة من كل الوسائل المشتركة ومن كل الكفاءات المقدمة إحدى الفرص القليلة التى تستطيع مصر بواسطتها أن تتغلب على المصاعب الهائلة التى تقف فى طريقها. إن هناك مهمة أخرى وهى الإعداد السريع لعلماء آثار قادرين على متابعة العمل الميدانى لا مجرد باحثين حاصلين على دكتوراه فى علوم اللغة أو تاريخ الأديان، وهى تخصصات يفضلها الطلبة على دراسة الآثار. وفى النهاية فإن تركيب الأجهزة التكنيكية فى أماكن العمل شرط لا غنى عنه لتحقيق هذا التحول.

إن العزل التقليدى الذى كان سائدا بين البعثات الأجنبية، كل بلد على حدة، لهو أسلوب فى العمل عفا عليه الزمن وينطوى على عقبات أكثر مما ينطوى على مزايا. إن أحد مصادر الثروة فى العمل فى ميدان المصريات هو بالتحديد الإمكانية المتاحة

للباحثين والدارسين من مختلف البلاد أن يقارنوا بين معارفهم ومهاراتهم ومعارف الآخرين ومهارتهم. إن هذا التكامل هو مفتاح للمشروعات المتشعبة الصعبة، لأنه من الصعوبة بمكان تبادل المعرفة الشخصية التى يحّصلها الإنسان بنفسه مع معارف الآخرين الشخصية. إن الطابع الدولى الذى حتمته فى الماضى لقاءات الصدفة والحاجة إلى تخصصات مميزة وذلك فى إطار تنظيمات كانت جامدة فى بداياتها، إن هذا الطابع الدولى الذى ينمو فى ظل علاقات شخصية قد أصبح اليوم ضرورة من ضرورات العمل. ونتمنى أن يؤدى تنفيذ برامج أوروبية إلى زيادة سرعة هذه العملية الحافزة.



خاتمة

يمكن أن نلاحظ بعد هذه الإلمامة السريعة مدى ما يحظى به علم المصريات من ثبات عميق فى مدنياتنا الحديثة. على الرغم من أن هذا العلم يبدو فى اتجاهه الأساسى وكأنه يدور حول الماضى ويهرب من الحاضر. ومن المؤكد أنّ هذا الفرع من المعرفة قد تطور بشكل ملحوظ، لا منذ نشأته بل بشكل خاص منذ ربع قرن تقريبا. لقد كان هذا العلم فيما مضى وقفا على المجتمع الأوروبى الميسور، ولكنه الآن منتشر على نطاق واسع داخل البلدان التى لا تستطيع أن تدعى أنّ هذا العلم يمثل تراثها الحضارى الخاص، فى كل مكان رغم المصاعب الهائلة من جانب السلطات العامة المعينة .

ومازال فى جعبة علم المصريات الكثير من المفاجآت والمغامرات الأخاذة لهؤلاء الذين يستطيعون أن يكيفوا كفاءاتهم المهنية وكفاءات معاونيهم وفقا للإمكانيات الجديدة التى تطرح دون توقف خبرات تكنيكية مبتكرة وتخصصات متميزة. وهذه بلا شك وجهة نظر تختلف قليلا عن وجهة نظر أسلافنا لأنها تتطلب قدرات على التكيف، ولكنها تجعل البحث أيضا أكثر إثارة للشغف. نكاد الآن نستشف بعض الجوانب من تاريخ مصر القديمة. لابد أن يكون واضحا أن حالة من اللا مبالاة العامة المفاجئة ازاء هذه الاسئلة

أو حالة من الانغلاق الكامل غير المتوقع من جانب مصر يمكن أن يعرض للخطر مستقبل علم المصريات.

وما من شيء يمكن أن يعرض للخطر مستقبل علم المصريات اللهم إلا حالة من فقدان الاهتمام العام والمفاجيء إزاء هذه المسائل أو حالة من الانغلاق الكامل غير المتوقع لمصر.

تعليقات المترجم

(١) "هيراكونبوليس" : الاسم اليونانى لمدينة كوم الأحمر التى تقع مقابل مدينة الكاب فى جنوب مصر.

(٢) نقادة : تقع على الضفة الغربية للنيل على بعد ٢٧ كيلومتر شمال الأقصر.

(٣) مرمدة بنى سلامة : إحدى مواقع الحفريات لتحديد بداية الحياة الإنسانية فى مصر، تقع فى جنوب الدلتا غرب فرع رشيد.

(٤) حامية " إلفنتين سيين " : تقع فى جزيرة أسوان، وكانت تمثل حدود مصر من ناحية الجنوب منذ الأسرة السادسة والعشرين. وأثناء فترة الغزو الفارسى جاء تجار يهود واستقروا هناك. ولقد كشفت وثائق بردية معاصرة لتلك الفترة عن حياة اليهود وعن عبادتهم لإلههم يهوا والآلهة المحليين وعن علاقاتهم بمجموعات عرقية أخرى كانت تعيش هناك.

(٥) كرما : بين الشلال الثالث والرابع.

(٦) تيراكوتا : لفظ يطلق على تماثيل صغيرة من العجينة التى تصنع منها الأوانى الفخارية ويتم حرقها بعد ذلك، وتعتبر الفيوم والإسكندرية من أشهر المناطق بصنع هذه التماثيل .

(٧) أوستراكا : لفظ يطلق على قطع من الأوانى الفخارية أو الأحجار عليها رسوم أو رسائل أو عمليات حسابية. وكان أيضا تلاميذ المدارس يستخدمونها للكتابة عليها . وكانت الأوستراكا

نادرة فى الدولة القديمة والوسطى ولكن شاع استخدامها فى الدولة الحديثة.

(٨) بوابة تيبيريوس: نسبة إلى الامبراطور "تيبريوس" الذى تولى الحكم سنة ١٤ بعد الميلاد حتى سنة ٣٧ بعد الميلاد.

(٩) جرافيتى : رسوم أو نقوش أو كتابات على الأوانى أو جدران المعابد لا تستخدم فيها عادة الألوان أو أعمال الفرشاة. وكان يقوم بالكتابة أو بالرسم المصريون أو الزوار الأجانب الذين كانوا يزورون المعابد المصرية وكانوا يكتبون باليونانية أو الأرامية.

(١٠) الهيراطيقية غير العادية : خط هيراطيقى كانت تكتب به الوثائق القانونية والإدارية فى طيبة. وقد حدث خلط بين هذا الخط الهيراطيقى والخط الديموطيقى. وقد استخدم هذا الخط فى فترة الأسرة الواحدة والعشرين والثانية والعشرين وفترة الأسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين.

(١١) المرحلة "السائيتية" : مرحلة الأسرة السادسة والعشرين وكانت عاصمتها "سايس" فى شمال الدلتا.

(١٢) بلاط: تقع شرق الواحة الداخلة.

(١٣)باسا : بين الشلال الخامس والسادس إلى الشرق من شندى.

(١٤) أوشابتى: لفظ يطلق على التماثيل الصغيرة التى كانت توضع فى قبر الميت، تمثل من يقوم على خدمة الميت، وكانت تصنع من الشمع أو طمى النيل أو الخشب.

المراجع

للتعرف على فصول هامة من تاريخ علم المصريات يمكنك قراءة المراجع التالية:

H. Carter, The Tomb of Tut Ankh Amun,London; T. G. H. James (ed.), Excavating in Egypt, London,1982; J.- Ph. Lauer, Le mystére des pyramides, Paris, 1988; H. Laurens et coll., L'expédition d'Egypte 1798-1801, Paris, 1989; Mémoires d'Egypte, hommage á Jean-François Champollion, Strasbourg,1990.

وحول الهوس بالمصريات يمكنك الإطلاع على:

J.-M. Humbert, L'égyptomanie dans l'art occidental, Paris,1989; U. Ecco, Le pendule de Foucault, Paris,1989.

وحول امتدادات مصر الفرعونية يمكنك الإستفادة من:

S. Sauneron, Villes et légendes d' Egypte, Le Caire,1974; N. H. Henein, Mari Girgis, Village de Haute-Egypte, Le Caire,1988.

وحول بعض أساليب التنقيب والأعمال الهامة فى الآثار يمكنك قراءة:

J. Leclant, "A la quête des Pyramides des Reines de Pepi Ier", Bulletin de la Societé française d'Egyptologie 113, Paris,1988; J. Vercoutter (éd.) Mirgissa, I, Paris, 1970; L. Balout et C.Roubet (éd.) La momie de Ramsés II, Paris, 1985.

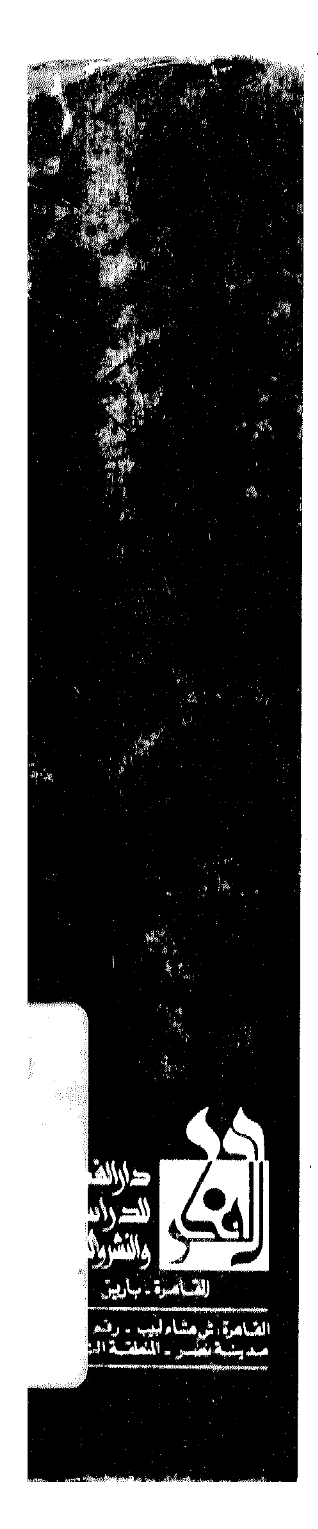
وحول الجوانب المختلفة من علم المصريات المعاصر استعن بالكتب التالية:

K. W. Butzer, Archaeology as human ecology, Cambridge,1982; H. G. Fischer, L' écriture et l' art de l' Egypte ancienne, Paris, 1986; J. Assmann, Maât, L'Egypte Pharaonique et l'idée de justice sociale, Paris, 1989; M.-A. Bonhême et A. Forgeau, Pharaon, les secrets du pouvoir, Paris, 1988; D. Valbelle, les Neuf Arcs, L'Egyptien et les étrangers, Paris, 1990.

- - - - - - - - - - - - -

محتويات الكتاب





علم المصريات

ينتمي «علم المصريات» الذي ولد في القرن التاسع عشر إلى علوم الإنسان والمجتمع، وإن كان يتمتع بمكانة خاصة. فهو يعالج مادة هائلة متنوعة تغطي آلاف السنين، تدور حول فروع كثيرة على مجرى مرحلة زمنية تمتد منذ فجر الإنسانية.

وفي هذا الكتاب فإن عالمة الآثار الفرنسية دومينيك ڤالبيل، الأستاذة بجامعة ليل، والتي تشرف على حفريات سيناء، تعالج الجوانب المختلفة لهذا العلم، ومناهجه، ومشاكله، وترسم خط سير دقيق للباحثين في علم المصريات.

الناشر

